وزارة الثقافة

رقمنة
وزارة الثقافة
Ministry of Culture

نيابةً عن النافذة

مجموعة قصصية

حلا أحمد الزيناتي

فلسطين - غزة

2025

مشروع إصدارات غزة

مشـــروع إصـــدارات غـــزة

إشراف عام: جاد عزت الغزاوي

نيابة عن النافذة - حلا أحمد الزيناتي

منشورات
وزارة الثقافة الفلسطينية
رام الله، فلسطين

جميع الحقوق محفوظة.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال لأغراض تجارية، دون إذنٍ مسبق من الناشر، كما ويمكنكم الحصول على الكتاب من موقع وزارة الثقافة الإلكتروني - "رقمنة" من خلال الموقع أدناه.

تصميم غلاف وإخراج فني: غـاوي خلـيل | تدقـيق لغوي: نـور عرفات

All rights are reserved
No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher. You can also get the book from the Ministry of Culture website through the website below.

www.moc.pna.ps/listBooks.php

نيابةً عن النافذة

مجموعة قصصية

حلا أحمد الزيناتي

فلسطين - غزة

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الفلسطينية

(Ps-2025-76)

الواصفات:/أدب//مجموعة قصصية/

يتحمل المؤلف/الناشر كامل المسؤولية القانونية عن مُنتجه.

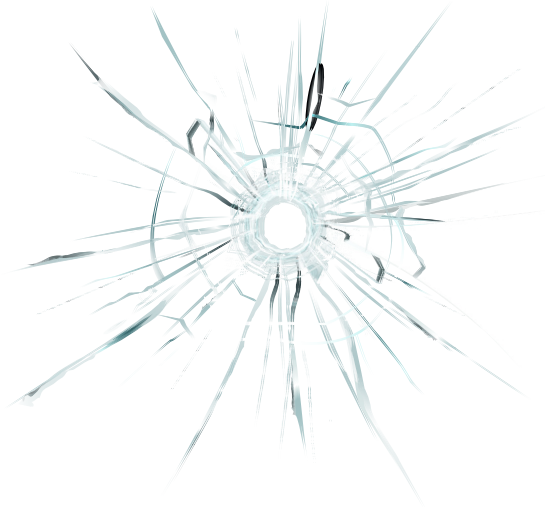

إهداء

إلــى الدعـوات التــي حمَـت قلمــي مــن البتــر، وســط الإبــادة،

إلى أمي وأبي،

إلى من قالت لي يومًا:

"لا تسمحي للحرب أن تسلب يديكِ أبدًا!"

إلى معلمتي وصديقتي سُمية وادي

إلى رئتي الثالثة،،

وطني!

الفارس الذي ضيّع حصانه!

لـم يـأتِ يـومٌ كان مـوج البحـر هادئًـا فيـه كمـا كان فـي تلـك اللحظـة، بـل لنقـل سـاعتها.. بـدا سـاكنًا كأنـه صـورةٌ التقطهـا مصـورٌ ونشـرها علـى لافتـةٍ قـرب سينما الحمـرا فـي يافـا، والـذي زرتُـه مـع عمـي العـام الماضـي حيـن ذهبنـا لزيـارة ابنتـه المتزوجـة هنـاك، ورأيـتُ وقتهـا صـورةً للبحـرِ تُشـبه شـط المجـدل الـذي أراه الآن تمامًـا.. داكنـة وجميلـة، وبائسـة جـدًا..

فـي الحقيقـة، لا أدري كيـف اسـتطاعت لحظـة حـزنٍ في داخلـي أن تثبّـت البحـر مكانـه؟ هـل توقّـف الزمـن؟ أم انتقلـتُ أنـا إلـى عالـمٍ آخـر فـي ثـوانٍ معـدودة!؟ وأقـول "ثـوانٍ" علـى سـبيل المبالغـة، فهـي لمحـةٌ خطفـت منـي

روحي، لمحةٌ هرب فيها حصاني، لا لا أنا أحلم، أتخيل كلمة هروب فينتفض جسدي كالعصفور بلله القطر، لا بد أنني حين أعود من اللاوعي سأجده ينتظرني على الشاطئ هنا، كما كان يفعل كل مرة حين أذهب أنا وهو للبيارة المجاورة أسرق برتقالًا لي وله من فوق السياج متخفيًا، لأطعمه وأبلّ ريقي، بعد عناء التدريب والسباق الطويل... حسنًا استيقظ يا أنا، استيقظ.. حتى مع ضرب الكفوف لم يتغير شيء، إذن هي الحقيقة، لقد ضاع مني حصاني..

حصاني، هل تعلمون ما معنى حصاني؟ يكاد يكون الوحيد في مدينتي المجدل، إذ لا شبيه له، ضحى، حصانٌ مؤصلٌ جاء من عائلةٍ عريقة كما كان يقول لي جدي كلّما رآني أو رآه، كأنه كان يعرف هذه اللحظة التي سيطير الحصان فيها مني!

ها أنا عدتُ من وهمي ثانيةً، أيقظني صوت مدرّبي حيّان الذي عاد للصراخ عليّ من جديد:

- أهذه رفسةٌ ترفسها لحصانٍ طري كحصانك، خسارة فيك! ها هو قد طار كالحمامة البيضاء، وتقف كالمشدوه ساكنًا بلا حراك!

مـن قـال لـك إننـي أقـف سـاكنًا، أشـعر وكأننـي بـركانٌ قـد سُـدَّت فوّهتـه.. يكمـل:

- احمـد ربـك أنـه لـم يعاملـك بالمثـل، وأنزلـك بهـدوءٍ تـام كمـا اعتـدت منـه، وإلا لكنـت أنـت أيضًـا فـي عـداد المفقوديـن..!

خـرج عقلـي مـن دوامـة عـدم الإدراك: مـاذا ؟!...متـى هـل فعلـت ذلـك فعـلًا؟!

كنـت أزدرد ريقـي، وأسـأله بقلـق مكتـوم: أيـن هـو الآن؟! دون أن يسـمع مدرّبـي الـذي لـم يتـرك كلمـةً إلا وسـبّني بهـا، فـي الحقيقـة هـو ليـس مدربًـا، إنـه فتـى مـن عائلـةٍ بسـيطة مـن قريـة الخربـة جوارنـا، وقـد كلّفـه أبـي مهمـة تدريبنـا أنـا وأولاد عمـي مقابـل بعـض الأسـماك التـي تصطادهـا مراكبنـا، فنحـن كمـا يقولـون عنّـا «أولاد البحـر» وقـد تملّكنـا سـفن المجـدل كلهـا.

قطّـب حاجبيـه، ونظـر إلـيّ بحـدةٍ مخيفـة، قائـلًا: اذهـب وابحـث عنـه فـي هـذا الاتجـاه..!

كان مدربي وقلبي يتناوبان على جرحي، جرحي الذي كان يتعمّق في جسدي، كلما داهمتني فكرة فقداني لحصاني للأبد!

زمجر المدرب في وجهي من جديد، بدأت أركض لا أدري في أي اتجاه.. بالكاد تلامس قدماي رمال الشاطئ... تعود بي الذكرى يوم كان جدي -رحمه الله- على فراش الموت بين آلاف الجرحى في ذلك المستوصف، نهار ثورةٍ ضد الإنجليز على المدينة، كان يلهث تارة، وتتقطع أنفاسه تارة أخرى، قائلًا وموجهًا نظره إلي: لدي هدية لك...

وقتها كنتُ طفلًا ولا أدرك صعوبة الموقف، ضحكتُ بصوت عالٍ: أين؟ أين تلك الهدية؟

أخبرني ببطءٍ وثقلٍ في الكلام بأن حصان العزيز سيلد مهرًا جميلًا قريبًا وسيكون لي..

أصابتني فرحة عارمة جعلت قلبي يبتهج في تلك اللحظة، وزادت من انهمار دموعي وأنا أركض نحو اللاتجاه، بحثًا عن حصاني «ضحى»..

وركضت، لا أعلم كم من الساعات قطعت، أنا الآن خارج حدود الزمان والمكان، أريد حصاني ضحى كي أطير به مرةً أخرى لحياتي العادية، كي أعود للسباق من جديد قبل الغروب وبعد أن ينتهوا من الحصادة وسقاية كرم أبي المطل على البحر..

كنتُ كلما شعرتُ بأن قدميّ تخونانني، وأني لم أعد قادرًا على الركض كالسابق، طغت رغبتي في إيجاد حصاني على عجزي الذي يتسلل إلى جسدي،

كلفتُ ابن عمي سليم أن يسقي الكرم إن تأخرت، وقد لا أتأخر، وطلبتُ منه أن يخبر (أختي فضة) أن تحل مسألة الحساب لي، فهي ماهرةٌ فيها رغم أنها لم تدخل مدرسة المدينة، وأنا لا أفقه شيئًا مثلها..

في طريقي الذي لم أهيّئ له أي شيءٍ سوى قلبي المنتفض، ركضتُ، تعثرتُ، وقعتُ، فنهضتُ، واصلتُ الطريق، أمسح قطيرات العرق التي تتصبب من جبيني براحة يدي، أشعر بآلامٍ بمفاصلي، وظهري، وأطرافي السفلية التي ما عادت قادرة على حمل كومة اللحم والعظام البشرية، التي تعتليها... يا إلهي لم أمشِ كثيرًا، من أين جاء كل التعب!

بالـكاد كنـتُ ألتقـط أنفاسـي، فـي كل خطـوة تقدمتُهـا، كانـت رائحـة الهـواء تختلـف عـن التـي قبلها، يبـدو أنني أصبـتُ بالـدوار، مـن فعـل الجـري خلـف حصانـي.. أنهكنـي الطريـق، شـعرتُ بثقـل بجسـدي، فهويـتُ علـى أرض لا أعرفهـا بالتحديـد، ونمـت جيـدًا...

رُفـع سـتار جفنيـه عـن بؤبؤيـه، وبـدأت الرؤيـة تتضـح لديـه تدريجيًـا، بمجـرد فتحـه عينيـه، رفـع رأسـه، الـذي كان مثقـلًا للغايـة، فوضـع كفيْـه علـى صدغيـه وضغـط بقـوة، مـن فـرط الألـم، نهـض وهـو يترنـح شـيئًا فشـيئًا، كبنـدول سـاعةٍ قديمـة، فـي بيـتٍ هجـره سـاكنوه، بـدأ ينظـر حولـه ليعـرف أيـن يقـف، مـا اسـم الأرض التـي تحملـه، أي بقعـةٍ مـن المجـدل هـذه؟ يبـدو أنهـا اختلفـت قليـلًا! شـكل البحـر، لونـه، رائحـةٌ خانقـة تشـبه رائحـة البـارود، هـل جـاء الإنجليـز هنـا..؟ رأى نفسـه يقـف علـى الشـطِّ، أمامـه البحـر، ذو الموجـات العنيفـة، تضـرب فـي الشـاطئ وترتـد إلـى الأفـق مـن جديـد، لكـن إلـى الآن هـو لـم يعـرف أيـن، ومتـى وكيـف؟! بـدأ يبحـث بناظريـه، عـن أي شـيء يثبـت لـه أنـه فـي علـم وأنـه لا يحلـم، رأى شـابًا يسـير وعلـى رأسـه كرتونـة

فيهـا شـيءٌ كأنـه حلـوى حمـراء، ممتقـع الوجـه، ملامحـه تحمـل كل معانـي البـؤس، والتعاسـة، وكأنـه أنـا.. ينـادي: أبـو الراويـح أبـو الفرايـح... سـأله بتـردد: يـا أخـي أيـن الطريـق إلـى حـارة الخلـة..

ابتسم بوهنٍ وقال: خلة من؟؟ إنه شط المخيم..

- مخيم ماذا؟
- مخيم الشاطئ
- شاطئ المجدل القبلي أم الشمالي؟
- سلامتك يا حج، هذا شاطئ غزة!
- غـزة؟! يسـخر منـي هـذا المعتـوه، لكـن لحظـة، هـل قـال حـاج؟!

أنـا فـي الرابعـة عشـرة مـن عمـري! هـل أبـدو عجـوزًا، فـي نظره؟

ليـس مهمًـا، المهـم هـو أن أعـود أدراجـي، شـوطٌ طويـل قطعتـه، ومـن المؤكـد الآن بـأن حصانـي العزيـز قـد عثـروا عليـه وينتظرنـي هنـاك...!

- ”أيها الحاج إلى أين أنت ذاهب؟“

- بطّل تقولي يا حاج..!

- طيب، أين تذهب؟

- عائدٌ إلى المجدل في الشمال، حصاني كنتُ أبحث عنه هنا..

ضحك بسخريةٍ، فيها بعض من الشفقة: «يا عم هل أنت تدرك ما تقوله؟»

- وهل في الأمر إدراك! أعود كما أتيت..

- يا عمي أغلقوا الحاجز قبل فترة، والحواجز لن تفتح إلى أجل غير مسمى، اذهب عند أقاربك الآن، وعندما يُفتح الحاجز قد تعود إلى المجدل..

- حواجز؟ أغلقوا ؟!..، من هم؟

- الصهاينة يا عمي

- الصهاينة ؟!

- هل كنت مسافرًا خارج البلاد أيها العم؟

- لا لقد كنت في المجدل.. من ساعاتٍ فقط.. جئتُ أبحث عن حصاني، هرب مني، أقصد ضيّعته على حين غفلة فـ...

ضحك نفس ضحكاته السابقة، قائلًا: ليس حصانك ما قد ضاع فقط!! احتلوا فلسطين يا عمي! ضيّعوها... استدار الشاب البائع،

ذهب بعد أن تركني في دوامة، لا أعرف كيف أصفها، هل سافرت عبر الزمن؟ أُحتلت فلسطين، وأنا أركض باحثًا عن حصاني...!!؟

بقِيتُ قابعًا في مكاني، ساكنًا لا أتحرك من هول الصدمة، جلستُ على الرمال الصفراء، ركّزتُ نظري نحو الأفق، أفكارٌ كثيرة تتزاحم في عقلي، وتتخذ من رأسي ملعب كرة، فتضرب أسئلتها في جدران عقلي المتغافل عما يحدث، أين أنت يا حصاني؟، سابقتُ الزمن للحاق بك، تركتُ بلدتي لأبحث عنك، تركتُ عائلتي... منزلي، الذي يقع بالقرب من سوق الخضار البلدية المنعشة بألوانها ونكهتها..، تركتُ أرض والدي.. كان موعد حصاد

زيتونهـا وشـيكًا، بعـد يوميـن، آه صحيـح، وكنـت قـد وعـدتُ شـبان الحـي أن أشـوي لهـم السـمك فـي اليـوم الأخيـر مـن الحصـاد، قبـل أن نعصـره ونصـدّر تنكاتنـا للقريـة المجـاورة، أظـن أن هـذا الطقـس هـو الملائـم لحصـاد الزيتـون! ولا يعقـل أن تختفـي اللحظـات فجـأةً هكـذا، الزيتـون ينتظرنـي، الشـبكة، الحصـان، المعصـرة، الطاحونـة، سـهرة السـمر ليلـة الخميـس، المنـاورة الفجريـة البهيـة...

وهـذا البحـر، هـذا البحـر.. ركضـتُ علـى طـول شـاطئ بحـر بلدتـي إلـى أن وصلـت إلـى هنـا...، غـزة التـي تجـاور مدينتنـا، أيـن أنـت يـا حصانـي، أعتليـك فتركض بـي بطلاقـة، علـى الشـطِّ الصافـي، وتأخذنـي لأبعـد مـن المجـدل، ولكـن شـرط أن تعيدنـي إليهـا..!!

أطعمـك بيـديّ، أمسـح علـى وجهـك، أعتليـك لأتسـلّق السـور كـي أحضـر التفـاح مـن كـروم المدينـة خلسـةً دون أن يرانـي أحـد، تـأكل مـن يـدي، لا يعجبـك التفـاح الأعجـر، فآكلـه أنـا..

ذاك اليوم قد مضى عليه مدة، أنا لا أعرفها، أين، أين يمكن أن تكون قد هربت مني؟ وفي أي زمان ومكان أنا؟! هل توقف بي الزمن هناك، أم أنا حقًا هنا؟!

نهض فجأة، شعر بألمٍ حادٍ في ظهره.. يُحاول التماسك، وضع يديه على ركبتيه، وبدأ بضرب راحتي يديه في بعضهما، يزيلُ حبات الرمال الصفراء المبللة عنهما، سار نحو الأمام فالأمام، خطواتٍ تقدمها، وبعض الأمتار، وقف ليجذب الهواء إلى رئتيه، يتنفّس الصعداء، ثم يواصل سيره.. سار فترة من الزمان، ركض، بترنح، يكابر آلام جسده...

في لحظةٍ ما، وأثناء ترنحه الواهن، سمع صهيل حصانٍ على بعد أمتار منه، صوتٌ لا يختلف عليه قلبه ولا عقله ولا جوارحه، لا شك في معرفته ذلك الصوت، رنَّ في أذنه، جعله يلتفت حوله، في كل الاتجاهات، كل مكان، تراءى له خيال حصانه، الذي يعرف تفاصيله ولو على بعد أميال، ابتسم، حتى ظهرت أسنانه، واغرورقت عيناه بماءٍ مالح كملوحة مياه البحر، استجمع فتات قواه، وركزها في قدميه

وركـض، تعثـر، مـراتٍ عديـدة، نهـض متكئًـا علـى ذراعيـه، عـاود الركـض، الخيـال يبدو واقعًـا، والحصان يقتـرب أكثـر، وهـو يجـرّ قدميـه كمـا أنـه جنـديٌّ أصيـب فـي معركـةٍ مـا، وهـو علـى بعـد مسـافةٍ مـن الالتقـاء بعائلتـه، أدركـه الحصـان صاحبـه.. كان وجهـه غارقًـا بالدمـوع، أمـال الحصـان برأسـه ليسـتند عليـه، ويعينـه علـى الوقـوف، وقـف بصعوبـةٍ بالغـة، ظـل يمسـح علـى رأس الحصـان، كان الحصـان لا يـزال شـابًا، بـل زادت رشـاقته أكثـر لـولا جرحـه وبؤسـه البـادي فـي عينيـه، ظهـره انتصـب أكثـر، وجسـمه تمـدد كالريـح.. لكـن ثمة أشـياء كثيـرة تغيـرت فيـه، الغبـار والجـراح والحـزن..، "هـل كنـت تبحـث عنـي، كمـا بحثـت أنـا عنـك؟»

أردف والدمـوع تسـيل فـي تجاعيـد وجهـه كالينابيـع فـي وسـط صحـراء قاحلـة، "أنـا بحثـت عنـك طويـلًا، انظـر إلـى رأسـك المُعفّـر، لـو أنـك مـا هربـت منـي، لمـا تغبَّـر وجهـك، ولمـا تعبـتُ أنـا ولمـا حدثـت أشـياء كثيـرة..!

مشـى داخـل مخيـم الشـاطئ، فـي أزقـةٍ رماديـة مزدحمة بالضجيـج ثـم الصمـت ثـم الأسـئلة.. وعلـى أطرافهـا هنـاك خيـامٌ عالقـة، لا تـزال تنتظـر مـن يبنـي لهـا

مثـل هـذه الأبنيـة القاسـية، مشـى مـع حصانـه، رأى أطفـالًا ونسـاءً يجلسـون علـى العتبـات، ملابـس مهترئـة وأوعيـةٌ كبيـرة تسـكب الطعـام لهـم، كتـب عليهـا أحـرف لا يعرفهـا، يبـدو كل شـيءٍ هنـا معلّقًـا، لا هـو فـي الأسـفل ولا فـي الأعلـى، يـا إلهـي.. مشـى مـع حصانـه،

- يا حاج يحيى أتريد شرب الشاي؟

- نعم.

- هـاتِ كوبيـن من الشـاي لـي وللحـاج يحيى، وتعـال تابـع الأخبـار، هنالـك اشـتباكات مـع الفدائييـن فـي المجدل!

فجرٌ على
ياقة ميلاد

والبـاص يسـير فـي وسـط صحـراء النقـب، يتجـه جنوبًا، أحمـل فـي يـدي، صـورة أختـي الكبيـرة ميـلاد، وهـي تلفنـي بذراعيهـا، بـكل حـب، والسـعادة تمـلأ قسـماتها، مـع أن قضيـة سـجنها الإداري عالقـة إلا أنهـا تطلـب منـي طلبـاتٍ غريبـة كهـذه الصـورة، هـي دائمًـا تقتـات الشـعور الجميـل، الخفيـف، علـى العقـل في الاسـترجاع، الثقيـل علـى النفـس بالشـعور بعـدم الرجـوع أو صعوبـة اللقـاء!

السـماء صفـراء، الرمـال، البـاص كذلـك.. والشـمس! لـم يكـن الصفـار الـذي عهدتـه وأعرفـه، كلـون شـعر ميـلاد

مثلًا، الباعث على الدفء، ربما كان كاصفرار وجه أمي يوم سمعت خبر اعتقالها على الحاجز وهي عائدةٌ من جامعتها.. كان اصفرارًا شاحبًا، باهتًا.. يُشعرني بالاختناق..

الوقت استغرق أكثر من ساعة، في الساعة الرقمية الحمراء، الجاثمة بجوار مرآة السائق.. عشته سنين وشهورًا في نفسي، كنت أود إخبار السائق، بأن يتوقف؛ لأنزل وأجري، في هذه الصحراء الشاحبة، الغريب لونها، أركض نحو أختي المعتقلة عند الوحوش هناك، لكن خشيتُ أن تتحالف ضدي كلٌّ من حرارة القرص الناري فوقي، والرمال المحمصة تحتي، وحرارة جسدي بفعل الاشتياق، أضف لذلك الخوف، القلق، والكثير من الحريق، كان يمكن أن ينشب في جسمي، فأتحول لرماد، تذروه رياح الليل الباردة، ولا أتمكن من الوصول لأختي، القابعة هناك.. حيث تذوي زهرتها، في مكان تشمئزّ الآفات من التواجد فيه...

لاحقًا، بعد الوصول للمكان الأسوأ في العالم، تمنيتُ لو سبق الموت دخولنا إلى هنا، ربما لو دخلنا جثثًا، وبقيت أرواحنا وحدها في المكان، تتردد لرؤية شخصٍ عزيزٍ عليها... شعورٌ يتجدّد في كل زيارة إلى هذا المكان، الشعور بالإهانة، الذل، القهر، الاحتقار، الاشمئزاز.. ألم يخلقني الله عزيز النفس، خليفة في الأرض، فلِم يحدث بي كل هذا؟! ربما لأن الدنيا لا تساوي شيئًا عنده، وإلا لما كان للخبيثين فيها موطن قدم يرتعون فيه!

غرفة، تلو غرفة، تلو أخرى، أربع أو ثلاث، أجتازها بعد اجتياز تفتيشي، أجتازها بعد انتظارٍ لساعاتٍ في كل غرفة، ودخولي خاليًا من كل شيءٍ سوى صورةٍ قديمة وخبرٍ جيدٍ خجول، عن توكيل محامٍ لميلاد ابنة الأسير السابق الشابة الجامعية التي لم تفعل سوى أن عبرت حاجز قلنديا العسكري.. ميلاد أختي، أجتازها لأتمكن من الوقوف خلف الزجاج ملوّحًا بيدي، لأتكلم عبر الهاتف السلكي المبحوح!

في المرة الماضية أجبروا أحد كبار السن على نزع ملابسه، فقط لمجرد شكّهم بأن معه شيئًا، تفتيشٌ أشبه بتفتيش الكلاب لأكياس القمامة، حاولوا أيضًا تفتيش إحدى السيدات، فما كادت تعترض حتى فُتحت فتحةٌ في باطن الأرض ابتلعتها عن الوجود!! أما أنا فيكفي ما أصابني من مرضٍ نتيجة تشغيلهم لمكيفاتٍ باردة وحارة من غرفةٍ لأخرى، فأخرج بسعالٍ قوي، وأنفلونزا حادة..

وصولي إلى ذلك الحاجز الزجاجي، وكأني وصلت النهاية، النهاية لكل شيء، لشعوري بالشوق، والحنين اللامنتهي، بمجرد رؤية أختي ميلاد، أشك أحيانًا، بأنها هي.. هزيلة الجسد، شاحبة الوجه، الطفح الجلدي قد ملأ يديها، والوجه الشاحب ذاك، نفسه الضاحك بمرح في الصورة الصغيرة المدفونة في قبضتي، فيه بقعٌ زرقاء باهتة إثر ضربها قبل شهر، لطالما قالت أختي إن جلدها حسّاس وينطبع عليه كلّ شيءٍ ويستمر طويلًا..!

لا أعرف كيف يمكن لمن مثلي أن يصف شعوره بالعجز، لاحتضان أخته التي تتعرض للضرب، على مدار الوقت، للإهانة، لسوء تغذية، للعيش في مكان، ليس بمكان وإنما هو.. هو مستنقعٌ مكتوبٌ أمامه لافتةٌ ممنوع دخول الكائنات الحية..!

تجرها اثنتان، ترتديان الزي العسكري المشؤوم، تخرجان، تشير لي إحداهما بيديها، خمسة عشر دقيقة، ماذا سأقول في ربع ساعة فقط؟ من أين أبدأ؟ بسؤالها عن اللكمات وآثار الجروح إن تعافت أم ليس بعد؟ عن حياتها، ماذا تأكل؟ أين تنام؟ ماذا تفعل بها الوحوش؟ ما الذي تواجهه؟ ما الذي يحصل؟ بعد ستة أشهر من الاعتقال الإداري كيف أواسيها وقد انفتحت بوابة الأحزان لمجرّد ملامسة عيناي عينيها.. حزن الماضي على أسر والدنا ثم استشهاده، وقد تركنا أخوين باسمين يحملان البهجة ولا يعيشانها.. ميلاد التي أبصرت النور ووالدها أسير، وفجر الذي أمامكم زُرع في أحشاء أمه ووالده أسيرٌ أيضًا!!

أختي ميلاد جلست على الكرسي، ونظرت في عينيّ المحترقتين، وأنا أجمع حروفي المبتسمة عنوةً، المتبعثرة في حنجرتي، أحاول أن أتمالك شعوري، وأضبط نفسي عند الحديث، لكي لا أنهار أمامها..

رفعتُ السماعة، وأنا أبتسم لها بوهن، تشقّ الابتسامة وجهها من بين الشحوب المخيف، تنحنحت قليلًا ثم لم أعرف ما أقول، أخجل أن أسأل عن حال أختي، والحال هو ما أراه، وما أعرفه، وما أسمع عنه، رفعت هي السماعة وسألتني هل أحضرتَها؟!

تنبهت لما قالته، وأخرجت الجثة، التي دفنتها في قبضتي، لمعت عيناها بالامتنان، وطلبت مني أن أقربها، إلى الحاجز الزجاجي، لكي تتضح الرؤيا لها، بدأت تبتسم، والنجمتان السوداوان، تغرقان تحت نقاطٍ صغيرةٍ من الدموع، تحدّثنا عن أشياء لا ينبغي أن نتحدّث عنها، كيف حالك؟ بخير الحمد لله مشتاقين، وأنتم؟ نحن بخير، وننتظر الفرج العاجل،

المحامـي بـدأ بالعمـل وسـيكون هنـاك حـلٌّ قريـبٌ إن شـاء الله لا تقلقـي.. أنـا لسـتُ قلقـة، كل شـيءٍ بقضـاء وقـدر والحمـد لله، أقضـي وقتًـا بالصـلاة والعبـادة وحديـث السـجينات، كل واحـدة لهـا مأسـاةٌ أصعـب مـن أختهـا..

كان الـكلام يجـري بهـذه الطريقـة، بينمـا هنـاك قصـةٌ صامتـة، ترويهـا عيناهـا، تلـك التـي كنـا بطليهـا، قبـل خمـس عشـرة سـنة، حينمـا حملتنـي فـي ياقـة قميصهـا نطفـةً مهربـة، وهـي ابنـة سـت سـنوات، سُمح لهـا وقتها أن تُسلّم علـى أبـي، دخلـت واحتضنتـه، ووضعنـي فـي فتحـةٍ أعدتهـا أمـي لـي تحـت ياقـة القميـص، سـندني والـدي جيـدًا، واحتضنتنـي أختـي ميـلاد بعنايـةٍ إلهيـة مـن سـجن نفحـة إلـى سـجن الحيـاة، أو لنقـل هـو القـدر الممطـر علينـا كالجـزع يجـرح جسـد اليقيـن!!

أمـي أرسـلت لـكِ مـا سـمحوا لنـا بإدخالـه، مبلـغٌ قليـلٌ هـذه المـرة، ربمـا فـأل خيـرٍ أنـك لـن تُطيلـي البقـاء يـا عزيزتـي..

بدأت يد أختي ترجف، ألمحها جيدًا، الوقت يحتضر، أتآكل من داخلي، دمعةٌ شقّت طريقها في وجهها الهزيل، أنا لم أقل شيئًا، كان الكلام عابرًا وليس بعابر، دعواتٌ وتمتماتٌ هنا وهناك..

"عزيزتي، لا تقلقي إن الله معنا»

كانت ستقول، ما كنت أريد سماعه، لكن انقطع الصوت، بنقر المجندة على كتفي، انتهت الخمسة عشر دقيقة، سنقتات عليها بقية الأيام، حتى إشعارٍ آخر باللقاء.. شعرتُ أنها دفنت حزنها في الجدران التي تحيطها، أما أنا فدفنته بجانب والدي في قبره..

في باص العودة، أخذتُ من السيدة الكبسولة التي بها قصائد أختي، أعطاها إياها زوجها حين احتضن ابنته الرضيعة ووضعها في حفاظتها، بالإضافة لكبسولاتٍ أخرى باحثة عن النور والفجر مثلما بحثتُ أنا..

غدًا سأرسلها لجامعة بير زيت كي تنشرها في مجلتها، لتكون شاهدةً على ألم أختي، كما أبي، كان

شـاهدًا علـى التحـدي والإصـرار، وأمـي شـاهدةً علـى جـرارِ الحـزنِ كلهـا.. وأنـا..

أنـا الشـاهد علـى الحكايـة، حكايـة الخـزان الـذي ابتلـع الفلسـطينيّ ولا يـزال يثقـب فيـه حتـى يدخـل خيـط الفجـر!

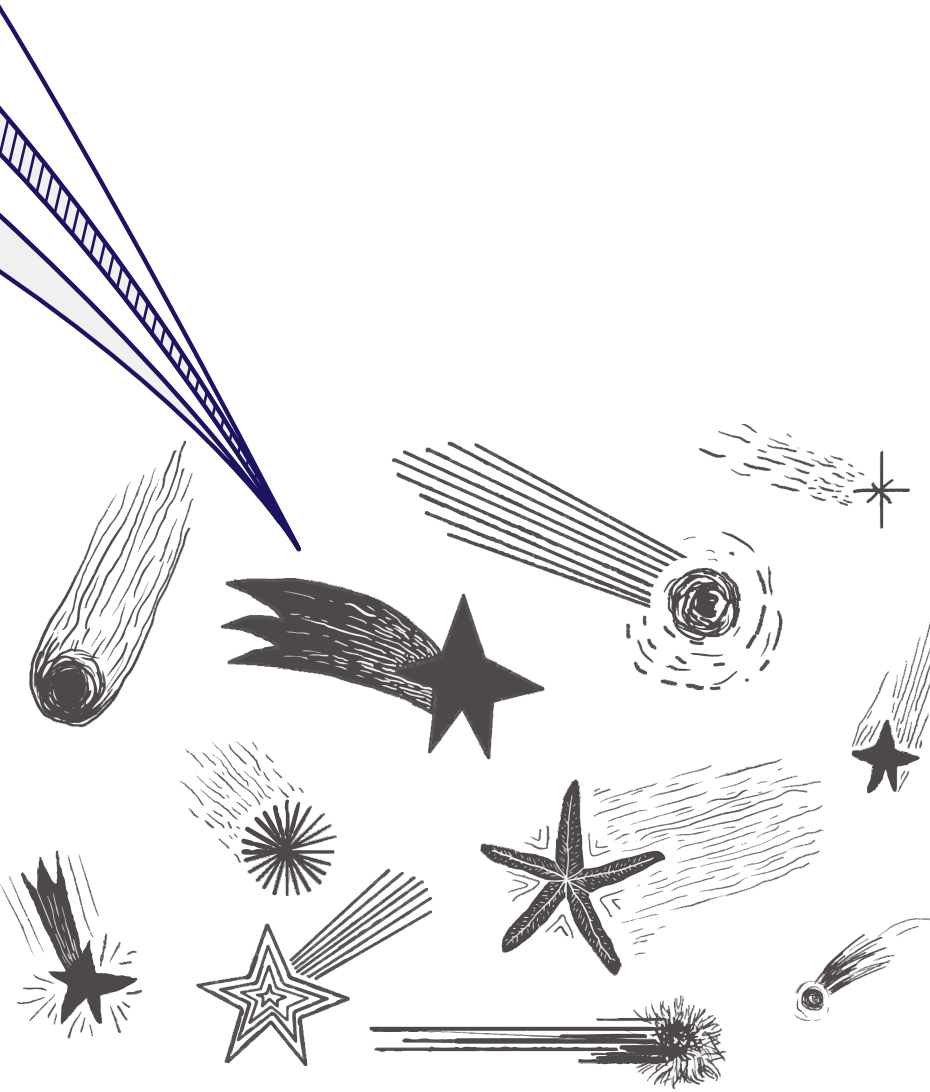

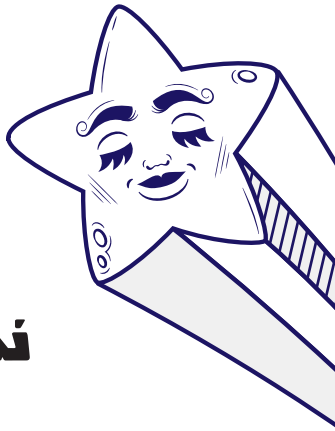

نجـمةٌ خارج إطار السماء

لا قيـود فـي السماء، النجـوم تنعم بحريـةٍ، لـم ينعم بهـا البشـر يومًـا، أو علـى الأقـل لـم نرهـا فـي بيتنـا غيـر المسـقوف..!

- مـا أكثـر موقـفٍ شـعرتم بـه بالخـوف والهلـع؟

كان وقـت فـراغ، وقـد قدِمـت المرشـدة النفسـية إلينـا، لطـرح أسـئلة كهـذه، تحثّنـا علـى تفريـغ مشـاعرنا، بالحديـث معهـا..

الفتيـات تسـارعن يرفعـن أيديهـن، وهـي ترمقهـن بعشـوائية لتختـار، مـن سـتتكلم أولًا!

أمـا أنـا فقـد عـاد المشـهدُ بـي دون جهـدٍ منـي، يـوم استيقظنا علـى صـوت انهيـار الكتـب فـي رفـوف مكتبـة أبـي، أوقعهـا هـو بنفسـه، وبـدأ بتمزيـق الكتـب واحـدًا تلـو الآخـر، ونحـن ننظـرُ إليـه فيرمقنـا بابتسـامته المفتّتـة، توقّـف قليـلًا وأمسـك بفتـات الأوراق وألصقهـا علـى أطـراف صـورة أخـي الشـهيد عامـر، كانـت أمـي تبتسـم لـه، تعـرف أن حالـه سـتصل لمـا هـو أكثـر مـن ذلـك، مـن تلـك اللحظـة التـي رأى فيهـا ولـده مسـحوبًا مـن بيتنـا بجنازيـر الحديـد، والرصاصـات التـي عبّـأت رأسـه، وهـو فـي انتكاسـةٍ نفسـية، بـدأت بالصمـت المطبـق، ثـم الحديـث بـلا توقـف عـن المشـهد.. أعـاده علـيّ مئـات المـرات ليـلَ نهـار..

- كنـتُ أربـطُ لـكِ حـذاءك وأنـت ابنـة أربعـة أعـوام لآخـذك معـي لمعمـل الحجـر القدسـي، لـم أسـمع صـوت أقدامهـم، لا أعـرف كيـف كسـروا البـاب! مضحـكٌ أمـر البـاب، فهـو لـوح حديـد بإطـارٍ خشـبي ولـه قفـلٌ علـى طـرف الجـرار، ويفتحـه أي أحـدٍ لمجـرد فتحـه البابيـن معًـا..!

تفاصيل دقيقة يرويها لي كل يوم، كأنك تتابع مشهدًا أو تقرأ روايةً من مئات الصفحات، ونبرات صوت أبي وتمثيله وكأنه مخرجٌ مخلصٌ يشرح للممثلين كيف يقومون بأدوارهم على المسرح!

كان عامر مهجة أبي، فرحته الأولى، وقرة عينه، كأيّ ابنٍ بِكر لوالديه، في الأربع سنوات التي مضت على استشهاد أخي، أبي لازمته عاداتٌ غريبةٌ لم تفارقه حتى اللحظة!

أبي يقول دائمًا: "حياتي يومان، يومٌ مع عامر ويومٌ بعد موته، هذا فاصل زمني، شطر حياتي، وقسم ظهري نصفين..».

عن يومه الأول، كان قارئًا نهِمًا، لم تفارقه كتبه في يوم، لأبي مكتبة صغيرة ورثها عن جدي وأحضرها إلى بيتنا، كانت مكانه الذي لا يفارقه، ساعة! لكن ليس بعد استشهاد عامر!

تقول الفتيات، في طريقنا للعودة، وقد انتهى الدوام اليوم «سنذهب للمكتبة، لشراء بعض المستلزمات لمسابقة الفنون التشكيلية، أترافقيننا يا نرجس؟!».

- لا، ليس اليوم!

- لمَ لا؟ غدًا آخر موعدٍ لتسليم المسابقة، كيف ستنجزين عملك؟

- عادي، سأطلب من أبي أن يحضر لي ما أحتاج اليوم مساءً، مع السلامة.

تهربتُ كعادتي من هذا الموقف، كالمواقف السابقة، الفتيات يعرضن عليّ الذهاب إلى المكتبة كثيرًا لشراء بعض الحاجيات، وأنا ولأني لا أملك ما يكفيني لتناول شيء في المدرسة أصلًا، أتهرب بدوري من تلك الأمور التي توقعني بالإحراج أمام زميلاتي..

مشيًا على الأقدام أعود، أمرّ من موقع المحجر الذي يعمل فيه أخي زيد، أخذوه ليعمل بدلًا من أبي قبل عامين، منذ بدأ الفقر يتخلل جدران بيتنا المتصدّعة، وسقفه المتهالك من ألواح الألمنيوم..

أحيانًا تضع أمي، في حقيبتي بعض الطعام لأوصله إلى أخي لكي يسدّ به جوعه.. اليوم كان منهمكًا في نقل الأحجار بالعربة الصغيرة، كانت الأحجار الضخمة تغطي جسده وتمنعني من رؤيته، حاولت مناداته، عدة مرات حتى سمعني، أعطيته وجبته، التي لفّتها أمي بورق الجرائد، وأخبرته بألا ينسى أن يحضر ما طلبه أبي منه ككلّ مرة، أخي زيد هادئٌ خِلاف كل الشباب في عمره، خِلاف عامر!

هذا الهدوء لم يولد معه، ولكنها الصدمة أطعمته إياه، صدمة استشهاد أخي، وفقدان أبي لوعيه!

أُسلّمه وجبته، أعود أدراجي إلى البيت، عبر الطريق غير المعبَّد، الأكثر هدوءًا وأمانًا.. أجد والدتي أحيانًا تنشر الغسيل خارج البيت على أحبالٍ مربوطةٍ بشجرتي سرو، وأحيانًا مع أبي تهدّئه من نوبات الغضب التي تعتريه..!

- هل مِن أحدٍ هنا!؟ قلت وأنا أخلع حذائي وأرمي بحقيبتي البالية بجوار الباب، وأعبر لأجول المنزل، أتقصى أخبار عائلتي المكلومة.. أمي ليست هنا، وأبي بدون شك

فـي غرفتـه، سـرت بضعـة أمتـار للأمـام، وطرقـت البـاب بأطـراف أصابعـي المثنيـة، كان مفتوحًـا، فدخلـت ونـاديتـه مـرةً.. كان ماثـلًا أمـام مكتبـه، الـذي غُطِـي سـطحه بقصاصـات الجرائـد الممزقـة، وأحجـار صغيـرة الحجـم، وكتـب ممزقـة بـدون رحمـة ولا اعتبـارٍ للحـب الـذي كان يكنُّـه لهـا يومًـا، تزحـف علـى بطونهـا جـوارَ ذراعـه المثنيـة لتسـند رأسـه المثقـل، وكأنهـا تمنعـه مـن السـقوط، اقتربـت مـن والـدي، وقلـتُ بشـيءٍ مـن الهـدوء الموحـش الـذي تخلّـل صوتـي، ككل مـرة، :"أبـي هـل أنـت بخيـر!؟"

أجـاب مباشـرة وقـد رفـع ذراعـه عـن المكتـب ووجـه ناظريـه تجاهـي: "بخيـر بخيـر طبعًـا، وأنـتِ كيـف حالـك؟"

- الحمد لله..

قـال بشـيء مـن الحمـاس، وقـد اتسـعت حدقتـاه: تعالـيْ لأريـك مـا صنعـت!

وضعنـي علـى ركبـة رجلـه اليمنـى، يشـيرُ لـي بتشـتّت، تنتفـض أصابعـه ويرمـي بالكتـب بعنـفٍ فـي كل أرجـاء

الغرفة، وأخيرًا وضع يده على إحدى اللوحات الجديدة والغريبة، قد صنعها من جديد.

بين فوضى القصاصات كانت اللوحة الكرتونية، ملتصقةٌ صورةُ أخي فوقها، تحيطها الأحجار القدسية الصغيرة، وقصاصات من أوراق كتب، وجرائد، عبارات، كلمات، أشعار، عناوين، وحتى تواريخ، أبي كان يقصُّها، ويحتفظ بها، وأما عن صورة أخي التي انتشرت بالجرائد قبل أربع سنوات، فصَلها أبي عن جريدة أخبار صباح ذلك اليوم، واحتفظ بنسخٍ منها، وما فتئ أن يبروزها بكل تلك الأشياء التي يجمعها..!

أبديت إعجابي بالفن الغريب، فهو في الحقيقة يستهويني رغم غرابته!

هواية أبي ليست مألوفة، لكنه يشعر بمتعةٍ لا مثيل لها، حين يجمع الأشياء والأوراق ويلصقها حول صورة أخي، يجمعها من كل مكان، الشوارع، علب البسكوت، جدران المخيم، مطويات في المساجد وفي مكان!

عند عودة زيد في المساء، يكون قد أحضر معه مجموعةً من الأحجار القدسية الصغيرة المهمشة في المحجر، لأبي، أقضي المساء بالحديث مع زيد، أو الاستماع إليه، وهو يسرد لأمي، تفاصيل عمله الصعبة..

"زيد أين تذهب الأحجار الضخمة التي تقوم بنقلها من المحجر!؟» سألتُ بفضول.

- إلى الفلل والعمارات والشاليهات التي يبنيها أصحابها الأثرياء!
- ولمَ لا تحضر أحجارًا لبناء سقفٍ لبيتنا؟
- ما أنا إلا عامل ينقل الأحجار يا أختي! أجاب بهدوء؟

التمست فيه الحزن، قلتُ مهوِّنة، لأخفف ريح البؤس التي لفحت وجهي، " لا بأس أنا متأكدة، سيأتي اليوم الذي ستكون فيه رئيس المحجر يا أخي العزيز».

ضحِك بوهن..

لقد نسيت أمر المسابقة! سيكون التسليمُ يوم غد! يبدو أنني لن أشارك!

جاء أبي ومعه اللوحة التي أراني إياها قبل قليل، ولكنها موقّعةٌ باسمي في الأسفل، وعمري..

لم أكن واثقةً من مدى جمال اللوحة رغم مجاملتي المتكررة لوالدي، أو حتى لم أملك الجرأة على حملها إلى المدرسة، بلا شك سيسخر الجميع مني، هذه اللوحة تعدّت معايير البشاعة في نظر طالبات المدرسة المتنمرات، لا يمكن أن أحملها، لأسلمها بهذا الشكل!

أقنعني والدي بشكل أو بآخر، أن هذه اللوحة ستنال إعجاب الجميع، و...

وحقًا، لم أنسَ، عندما سألني الحضور في حفل تكريمي بالمركز الأول، عن عنوانٍ مناسب لمثل لوحةٍ بإطارٍ من أحجار قدسية وعبارات وأرقام صغيرة وصورة شهيد يقف بعيدًا، أن أقول لهم:

- العنوان الأنسب هو ما قاله أبي لي، نجمةٌ خارج إطار السماء.. ولعله لم يكن خارجها فحسب، بل هو السماء بحدّ ذاتها،

أحبكَ أخي...

موتٌ بين كيسين

كان يمشي في الشارع وحيدًا، حاملًا قلبًا منطفئًا، حاملًا أجندة كبيرة من التواريخ المحترقة بنار هذا التاريخ. بجثّته الضخمة العريضة التي تغالب انحناء الخمسة عقود، يقطع الطريق بخُطى حائرة، منكفِئًا على وجهه. تغزو ساحة رأسه أفكارٌ وأقوالٌ مخيفة، موحِشة كأنها أشباحٌ، كأنها شياطين صغيرة.

وقلبه كيوسُفَ في البئر، يتطلع إلى رحمةٍ إلهية لطيفة، تتنزّل عليه أو تنتشله من عتمة المصيبة! من قبضة يده الكبيرة يتدلى كيس بلاستيك أسود،

تنبعثُ منه رائحة لا يمكن لإنسان أن يميّزها. هي وحدها القطط من يصدُر عنها مواء كأنين الجائعين حال مروره أمامها على طول الأرصفة.

الكيسُ الساخن، الذي يكادُ ينصهر، ينزفُ كلّ الحكاية، ينزِف عمرًا ودمًا وذكرياتٍ، ينزف الكثير ويختزل أكثر. من جبينه العريض يهطلُ العرقُ باردًا، ليسقي تربة وجهه الناشفة الخالية من التعابير كأنه ولِد بلا ملمح، كأنه ترك نفسه طوال العمر للموقف والفجيعة لأن ترسم ملامحه لاحقًا!

إنها الجنازةُ تقامُ في دواخله، إنها الجنازة الضجيج الوحيد في هذا الكون، كونُه. والصمتُ يثقِل كاهل كل الأشياء من حوله، حتى تلك المرأة العجوز التي انتبه لوجودها إلى جواره. كانت قامتها مثقلة بالصمت، إلى الحد الذي جعلها محنية كأنها عكّاز كبير وضعيف، وبذراعيها القصيرين تحتضن كيسًا مألوفًا، معروفًا.

كانت منهمكة وهي تحملُ حكاية أكبر وعمرًا أطول، وكيسًا أثقل. كانت عجوزًا تحملُ حِملًا ثقيلًا، لم

يعرِض عليها أحدُّ العون، ربما لأن ما تحمله هو شيءٌ يخصّها إلى درجة الالتحام به!

في ذلك الشارع الذي بدا كشريانٍ يندفع فيه الناس كالدمّ، في اتجاهٍ معين، والرصاص يتعالى في الجوّ بجنون. التفتَ إليها، حيث التقطت أذناه صوت شهقاتها وزفراتها المتقطّعة كأنما تحتضر! لكنها قطعت سيمفونية أنفاسها المجهَدة بسؤالٍ مباشر: ماذا تحمل؟

لم تنظر إليه، لكن أنفاسها باتت أضعف، كما لو أنها تصغي بكامل حواسها وتترقب جوابه. انبعثت عن الرجل الأسمرُ نحنحة سريعة، وأجاب بتلقائية: لحْم، قصدي ابني.

لم تلتفت المرأة العجوز، لم تبدي أي ردّ فعل، بل عاودت لفّ الكيس بذراعيها وتملُّك حجمه الكبير ووزنه الثقيل! وبعد دقيقة ونصف، قالت بنبرةٍ لا يمكن قراءتها: وهذا ابني، أقصد لحْمه.

حينها التفتت إليه وقد أخفض بصره نحو قدميه وتابعهما وهما تقضمان المسافة.

- ابنُك صغيرٌ أم ظلموكَ بالتوزيع مثلي!؟

كان صوتها مرتجفًا، كأن حنجرتها خيمة في مهبّ عاصفة. ابني صغير، أجابها وقلبه يرتعد لدى رؤيته صورة ولدِه التي تمثّلت أمامه. همس كأنما يخاطب نفسه: ووحيدي! رمقها بنظرة منطفئة: كيف ظلموكِ؟

أعطوني خمسين كيلو غرامًا، وابني رجلٌ عفِيّ، ليس بولد. كان أحمد طويلًا وعريضًا، وعوده قويّ! ماذا أعمل بخمسين كيلوغرامًا أنا؟ قال لي المسعف: خذي يا حاجّة! ماذا آخذ؟

- حسبنا الله ونعم الوكيل يمّه! قال المسعف. صرخت في وجهه: انظر إليّ يا بنيّ، ابني استشهد هنا، أريده كاملًا. أتعلم ماذا يعني كامل؟ بدي سبعة وسبعين كيلو أقل شيء! فهِم ما أعني، اعتذر إليّ وهو مصدوم من

كمّ الدم والأشلاء التي أحاطته. والحق يقال، أنا المخطئة، لم أكن أعرف بأن ابني كان في شارع المدرسة، أنه شهيد، أنه تفتّت، ووصلتُ متأخرة، وأعطوني فتات اللحم والأشلاء.

- رحمة الله على ابنكِ، وابني! قال وهو بالكاد يشعر، قال لكيلا تظنّ المرأة بأن الخرس أصابه. كان درويش مصابًا بخدرٍ بكامل جسمه إثر الصدمة والفجيعة التي أصابته، وبينه وبين الجنون حاجّة اسمها أم أحمد، تسترسل بسرد قصتها عليه، دون أن تلبث عن توضيح مدى ندمها على تأخرها وعدم هرعها نحو مكان استهداف ساحة مدرسة الإيواء التي تبعُد عن بيتها مسافة شارعين. كانت مقهورة حدّ النحيب لأن المسعفين لملموا لها الأشلاء من أنحاء الساحة وجمّعوها في كيسٍ وقالوا لها: هذا فقيدك يمّه!

- من بعد أحمد لا أحد يقول لي يمّه! أنا يتيمة الابن.

توقفت، إنه انهيارٌ في سائر أطرافها. أنزلت الكيس أرضًا، رفعت رأسها، استغاثت: يا رب أعِني! وعاودت الانحناء لكي تتناوله وتحتضنه، وتكمل طريقها. كان قد سبقها ووضع يده على الكيس. نظرت إليه باستنكار: دعيني أحمله عنك، لو سمحتِ لي!

في حين حملت أمّ أحمد، الكيس الصغير ذا العشرين كيلو وضمّته نحو صدرها، وعلى جانبها يمشي درويش وهو يحمل كيس الخمسين كيلو بيده اليسرى. ماذا كان اسم ابنك؟

- اسمه أحمد، لكنه كان يحب أن أناديه حمّود! كان ابني الوحيد، بعد ثلاث بنات.

فليكن الله في عونكَ، على ما ينتظرك. أمه ستُجَن، قالت أم أحمد وهي تحدّق في السماء. كان الرصاص يتناثر في الجوّ كأنه هواء، والطائرات المسيّرة

تـزداد جنونًـا علـى جنـون. قـال: وعونـكِ. لـم تضحـك لكنهـا اسـتهزأت بانطفـاءٍ كبيـر: أنـا لا شـيء ينتظرنـي يـا بنـيّ، لا أولاد ولا حتـى عمْـر.

فـي الجانـب الآخـر للشـارع هبطـت قذيفـةٌ، وانفجـرت كأنهـا تعلـن بـدء قيامـة علـى الأطـلال. فـي كل اتجـاه هـرع البشـرُ، والعويـل مـزّق غبـار الانفجـار حتـى تلاشـى. بـدأ جسـم درويـش ينـزفُ عرقًـا باضطـرابٍ وقلـقٍ رهيبيـن. وفـي لحظـة اسـتيعاب المنطقـة لصـوت القذيفـة، تلفّـت حولـه تفقّـد بدنـه، فـي حيـن صـرخ إنسـان: الدبّابـة هنـا اهربـوا!

تنـاول الكيـس الـذي وقـع أرضًـا، حملـه وأطلـق قدمـاه للريـح تـاركًا وراءه مشـهدًا مرعبًـا لا يسـعُ مخيلـة إنسـان تصـوّره!

أمـام زوجتـه وقـف، فـي سـاحةِ مدرسـة إيـواءٍ تبعُـد عـن منطقـة تقدُّم الآليـات، بمسـافة بعيـدة قطعهـا النـاس مشـيًا علـى الأقـدام، حفـاةً لا يحملـون إلا أرواحهـم ولا شـيء بعـد أرواحهـم! ووصـل درويـش هنالـك، حيـث شـاء القـدر أن يلتقـي بمـن تبقّـى مـن عائلتـه بعـد بحـثٍ

استمرّ ساعة، وكم كان يودّ لو يتأخر بإيجادهم. سألته تلقائيًا: أين حمّود؟ كانت ترتجف وتواري نفسها برداءٍ أسود طويل. همس: يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسيًّا منسيًّا!

فتحت أم أحمد عينيها، كانت في بيتها الصغير، يطغى عليه النور والسّنا، كأن البيت في صباح أحد الأعياد البهيجة. وفجأة تسلل إلى سمعِها القويّ صوت ينبعثُ من جنينتها الصغيرة التي تزرعها بكل الأعشاب والشتْلات. نهضت بعد أن استجمعت قواها وردّدت: يا الله يا رب!

انتعلت شبشِبها ومضتْ نحو الجنينة، وجدت شجرة المِشمش مثمرة تدلى حبّاته كأنها مجوهرات صغيرة تعتزّ بها أم أحمد أكثر من حِليّها الذهبية العتيقة. حتى التينة التي زرعها أحمد منذ وقتٍ طويل، كانت يانعة ومثمرة. كذلك نبتة مكنسة الجنّة والريحان والنعناع كانت في قوارير مختلفة الأحجام!

تملّكتها سعادةٌ كبيرة، أخذت تجول على مهلٍ في الجنينة وتحمد الله، على ما صارت عليه نباتاتها بعد أن احترقت بسبب الحرب والاجتياحات المريبة.

انحنتْ كطفلة صغيرة تخاطب نبتاتها، تتحسّسها بسعادة ورضا، وإذ بصوتٍ تألفه يباغتها: الزرّيعة كبرت يمّه!

كان أحمد لا غيره يقف بطوله الشامخ جوار شجرة التين التي غرسها قبل سنوات، وحوله يدور ويلهو صبيٌّ صغير ناصع البياض، مدوّر الوجه، طويل الشّعر وعيناه سوداوان. قفزت الأم الحاجّة كأنها فتاةٌ صبِيّة، دون أن تتأوه حتى! عانقته وهي تضحك وتبكي، واختلط عليها الشعور.

- أين أنت عنّي!؟ سألته وهي تجهش.

ربّت على كتفِها وهو يضحك ملء شدقيه: تبكين يا كريمة كأني استشهدت لأذهب لجهنم لا سمح الله!

- مَن هذا الولدُ يا أحمد!؟

- هذا أحمد يا أمي، ابنكِ الذي تسقين الريحان حول قبره، والذي تترحّمين عليه كل ساعة!

في ذلك الوقت، ابتعد الصبيّ الصغير كمُهرٍ أصيل يسابق الريح، ابتعد حتى اختفى.

سألت الأم ابنها: أين ذهب الصبيّ!؟

- إلى أبيه.

كان الشّاب قد طغى نور وجهه على نور جنينة أمّه وأفيائها، كان كاملًا طولًا وعرضًا، ابتسم وأردف: أنا في الجنة يا أم أحمد، لم أضِع منكِ.

- أتعرفين يمّه، الجنّة أحلى من الوطن، لكن بدونه لا يصلُ الشهداء جنّة الله! اهتمي بالجنينة يا أمي، جنّتكِ الصغيرة في الوطن، اهتمي بها، ازرعي ألف مشمشة بدل الذي حرقوه، واسقي التين وقبر الشهيد الذي بجوار الريحان؛ لينبُت الأطفال.

كان يمشي نحو باب الحاكورة الذي تورّم صدءًا، يمشي كأنه سيعود، كأن هنالك ملاكًا في الخارج، خارج البيت ينتظره لأن يعود به إلى السماء كما أوصله. كان يلوّح تلويحةً بدت وكأنها الأخيرة، يلوّح ويتلاشى عبر الباب. الأم غارقةٌ في غمرة هذا النعيم الصغير، لا تقوى قدماها على حملها.

قال أخيرًا: فتّشي في الأرض عني، اسقي قبري لتنبُت روح المقاوم، روحي في إنسان آخر من جديد!

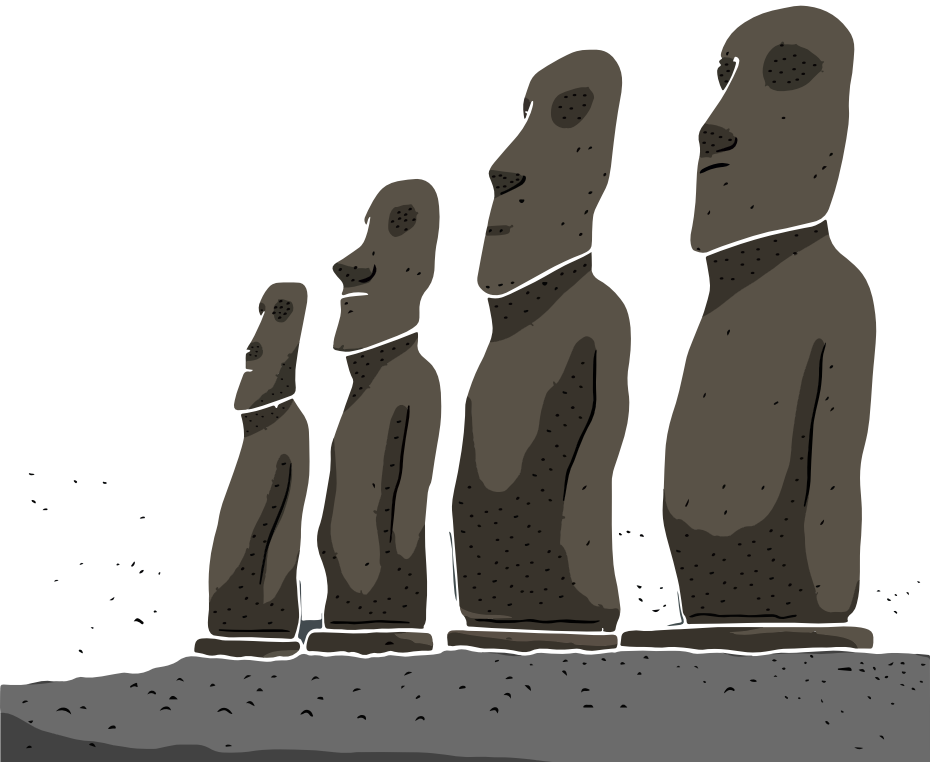

صديقي البنُّيّ

عند الطاحونة الحجرية، أخواتي المتناثرات حولي، وأنا أُبصرهن يتدافعنَ نحو المصيرِ اليوميّ، والسحقِ العادي.. لكنه سحقٌ جميل يمدّ العالم برائحةٍ لا مثيلَ لها..

تناولتنا الأيادي الضخمة، بسرعةٍ اعتدنا عليها، كلٌ تعانقُه يدٌ في عزمٍ وشدة قد عهدناها، أحب هذا الحماس، والشغف في العمل، لكن، تؤلمنا قصتنا، قصة العمل تلك، أو بمعنى أدق تؤلمني أنا، على وجه الخصوص، لأنني سأفارق أمي، التي تبتسم لنا، تلوّح بيدها الصلبة المحشوة بكمٍّ ضخمٍ من الليـن والجمال..

جرّتنا نساءٌ وأطفالٌ إلى مكانٍ بعيد، وبقي عددٌ كبيرٌ من حبات البن معلقاتٍ هناك عند أمي، أما نحن فافترشنا الأرض، تحتنا كيس خيشٍ أبيض كبير، ونحن نسمعهم يضربون بفأسٍ كبير فروع الأمهات يجبرونهنّ على إلقاء أبنائهنّ ثمار البن الثقيلة المحشوة والممتلئة، أما الفارغة فكانت تطير في الهواء مع ضرباتٍ خفيفة من تلك الفؤوس على بعض الفروع والأغصان..

أسمع أحاديث الجميع حولي، ثمة فأسٌ يبكي:

أذكر حينما صنعتني تلك الأيادي البشرية، من خشب أمي، لم تكن شجرة صلبة العود، متجذرة في الأرض كالأشجار الأخريات، كانت لا تزال جديدة الزرع، طرية الأغصان، لم تتعامل الحاجة البشرية معها برفق، قصّت جذعًا عريضًا منها، ليكون يدًا تحمل القطعة الحديدية المسننة فوقها، لم أكن أعي بعد معنى الأسى، معنى اقتطاع جزءٍ منك، ليكون في وقت لاحق ضدك أو سببًا في انعدامك، في كل لحظة عمل كنت أنا الأداة فيها، كنت أشعر بأني

أمـوت حقًـا، لـم أكـن أشـعر بأنـي علـى مـا يـرام..!

تركنـي صاحبـي الغـازي المعـادي لهـم -كمـا تدعـوه الأشـجار-، معلـقًا فـي أعمـاق الجـذع الخامـس علـى التوالـي، أنهيـت خمـس حيـوات، فـي بدايـة سـاعات النهـار الأولـى، إننـي أقضـي علـى كل شـيء، أنهـي أمـر كوكـب، بشـرية، بيئـة، بيـدي الخشـبية، التـي كان أصـل خلقهـا مـن جـذع شـجرة مـا فتئـت عـن قتلـه الآن!

"هـا أنـت سـتقضي علـيّ حـال عـودة صاحبـك المعـادي لنـا، وتنهـي حياتـي، وديمومـة الحيـاة علـى هـذه الأرض باتـت ضئيلـة، احـذر!"

صمتٌ بعد تنهيدة، ثم، أحدهم يقول: استراحة!

بعـد دقائـق هادئـة مـرّت، كنـت أتابـع فيهـا مـرور السـحاب مـن فوقـي، يشـبه الغمامـات التـي تصنعهـا أخواتـي فـي مسـار رحلتنـا الأخيـر، حيـن نصيـر فـي الفناجيـن والـدلّات، نلمـح تلـك الغمامـات الحـارة مـن فوقنـا، وتلقائيًّـا تعلـو الشـفاه ابتسـاماتٌ ولهفـات غريبـة، كأنهـم يتزلّقـون فـوق كثبـانٍ رمليـة تغـرق باللـون البنـي الدافـئ.

تـم جمعـي مـع الحبـوب الأخـرى، وضعونـا فـي صناديـق خشـبية تكسـوها أوراق الجرائـد كـي لا نسـقط مـن فتحاتهـا، لكننـي وكعادتـي سـيئة الحـظ، علقـتُ فـي زاويـةٍ لهـا شـرذمةٌ خشـبيةٌ حـادة، كأنهـا فـم إبـرةٍ عجـوز، حاولـتُ الصـراخ فعنّفتنـي تلـك الشـرذمة قائلـةً: لا تقلقـي، لـن تبقـيْ هنـا، إنهـم ينفضوننـا كل يـومٍ ليضمنـوا عـدم بقـاء أيـة حبـةٍ بـنٍّ فـي الصنـدوق، يخافـون عليكـنّ كمـا يخافـون علـى أولادهـم..!

تـم حملنـا فـوق العربـات التـي تجرُّهـا الحميـر، إلـى بيـوت القريـة، هـي رحلـة لا تنتهـي مـن النقـل، مـن هنـا إلـى هنـاك، تتناولنـا أيـادي النسـاء، لتبدأ بتحميـص كل ذلـك الحصـاد، مـن بـذور البُـن، ومـن البنـي الفاتـح يتحـول لوننـا إلـى الداكـن، على سـطح المقلاة النحاسـية، فـوق البابـور المشـتعل.

تعبئُنـا أيـادي الأطفـال والفتيـات، فـي أكيـاس القمـاش، ومـن ثـمّ نعـود علـى سـطح العربـات إلـى آخـر القريـة، عنـد الطواحيـن الحجريـة، الصغيـرة منهـا والكبيـرة، ويتـم طحننـا بعنايـة شـديدة.. تأتـي لزيارتنـا تلـك الصديقـاتُ الجميـلات، واللاتـي ينافسـننا فـي تعطيـر

الأكواب وجلسات البادية والعرب، الزنجبيل وحبات الهيل، وعروق الزعفران المشتعلة كوهج الشمس...

في صباح اليوم التالي، جاء صاحب حقل البن الذي كنا فيها، وبدأ بتجهيز مقلاة نحاسية، وأشعل نار البابور، وشرع بتحميص كل الحبوب، استغرق ذلك منه وقتًا طويلًا، وسبّب له آلامًا في ظهره، انتهى اليوم من مرحلة التحميص، وكنا قد بدوْنا بِحُلةٍ جديدة، من البُني إلى البُني الداكن، ونمنا سعداء بمظهرنا الجديد الذي يشبه عيون الغزلان الداكنة خلف ظل الشمس!

في يوم غدٍ، بدأ بوضع مجموعات بقدر ما تتسع له قبضتاه من الحبوب، بين الأقراص الحجرية لطاحونته، وبينما يقوم بلفِّها بشكل دوراني، يتمتم بكلمات مرة، ويدندن بألحان مرةً أخرى! كلها عربيةٌ لها إيقاعاتٌ منفردة: أنا المعشوقة السمرا وأجلى في الفناجين.. ومرة أخرى.. أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي ولمسة أمي..

جمع بِكفيه حبوبًا أخرى وكنتُ أنا بينها، فرحتي لا توصف، هذا رائع جدًا! قام بتدوير الطاحونة لمدة دقائق، كانت الحبوب تضحك باستمتاع، عداي أنا! لم أكن أشعر بأي شيء، انتهت الجولة، لكنني لم أكن من بينهم، كنتُ ضئيلةً جدًا لا يصلني سقف الطاحونة، ظننتُ أن أمري قد انتهى، حتى تناولني الرجل من جديد، ووضعني مع فتات الحبات الخشنة، وعاود تمليسي من جديدٍ بخفةٍ وجمالٍ ردّت لي روحي، وأغاظت الشامتين حولي من يتنمرون على حجمي الصغير!

تقول حبات الهيل التي لطالما حقدتُ عليها، إنها تبدو كفتاةٍ فاتنة الشكل، لكنها غاويةٌ مغرورة: نحن أجمل ما أنبتت الأرض، لكنني أكره ذاك الكائن الذي يعبّق مكانًا برائحة دخانه ومصانعه المؤذية، ويعبّق مكانًا آخر برائحتي التي تحمله للجنة! هذا المخلوق معه انفصامٌ غريب، يصفع الطبيعة بيده التي تمسح الدم عن وجهها جرّاء صفعته!

في الحقيقةِ، كلامها صحيح، فقد شهدتُ قبل أيامٍ تلك المناشير الكهربائية، وهي تقصّ جذوع الجدّات

الكبـار، أشـفقتُ علـى أمـي ونفسـي وإخوتـي، أيـن نهربُ من بطشهم؟! لو لم أكن البنَّ العبقريّ، لكنتُ ربّما ذاك السنديان الذي يموت لأجل أن يجلس أحدهم على كرسيٍّ، بينما يحرم عشرات العصافير تغريدَها، وملايين ذرات الهواء أن تعيش دورة حياتها مع الأشجار!

بعد يومين من مكوثي على الرف هنا، جاء ظرفٌ في الرف المجاور لي، إنهم يضعوننا حسب تاريخ طحننا، لأننا نتعتّق كالخمر مع مرور الوقت، وكل قهوةٍ تناسب ذوقًا ومناسبةً حسب يوم حصدها وطحنها، فعمرُنا مرهون برائحتنا، نحن لا نقيس أعمارنا بالأيام، وإنما بالرائحة!

كانت حبات البن في الرف المجاور تنقل لي حكاية الفأس المتمرد الذي سمعتُ صراخه قبل أن آتي إلى هنا..

نخر الزمن يدي الخشبية العريضة تلك، وقطعة الحديد المسننة، ما فتئت عن الخروج من مكانها ولم تعد صالحة، للتدمير أكثر، فتمّ النفي بي إلى قائمة الأشياء القديمة، أو بوضوح أكثر في صندوق

المهمـلات فـي الورشـة، إننـي أشـهد تصنيـع جيـلٍ جديـد مـن آلات التدميـر شـبيهتي، ولا تـزال عجلـة الخـراب تسـير بجنـون نحـو مسـتقبل مظلـم للطبيعـة، والكوكـب، لـم أعـد أحتمـل رؤيـة هـذه المشـاهد أمامـي وأظـلُّ محتفظًـا بسـكوني كوْنـي جمـادًا... مـا نحـن إلا أدوات باليـة، يفنـى عمـر اسـتخدامها، بعملٍ لا يرضـي أصلهـا البيئـي، ولا حتـى الطبيعـة ذاتهـا. كان يجـب أن أتصـرف!

تـم تجهيـز جيـش مـن الأدوات المتشـابهة، تشـبهني فـي أيـام شـبابي، أسـمعهم يتكلمـون بحمـاس، قـد عشـته فـي أول مـرة، عـن كيفيـة العمـل، والسـعي، تلـك الأدوات الصغيـرة لا تعـرف بأنهـا سـتكره وجودهـا، الـذي وجِـد فوجَـد الخـراب والتدميـر..

أعـود إلـى مصيـري المحظـوظ، وقـد ابتاعتنـي سـيدةٌ أربعينيـةٌ مـن أحـد المـولات العربيـة المضيئـة بـكل أركانهـا، كنـتُ فـي علبـةٍ كُتـبَ عليهـا نصـف شـقراء، نصـف داكنـة، وكان عليهـا اسـم الشـركة التـي تطحنهـا فـي مطاحـن ضغـط كبيـرة، وقـد يشـترينا النـاس ويضعوننـا فـي ماكنـات القهـوة فـي بيوتهـم، ثـم مـع

حرارةٍ وضغط شديدين نخرج بأمرٍّ ما يكون من طعمٍ يبعث فيهم نشوةً تتنامى مع موسيقى شرقيةٍ لفيروز في الصباح، ودرويش في المساء.. إنني أسمعهم، يتناقلون الفناجين، ويتبادلون القصائد في المقاهي والأماكن العامة، وفي البيوت الحافلة بالأصدقاء والزائرين..

وأحيانًا كثيرة، يتم استيراد البُن من البلاد الغربية، كسويسرا، والولايات المتحدة، وهناك شركات عملت على تخزين محصول من كرز القهوة، لأن الاحتباس الحراري ما فتئ يزداد، مما يقلص من نسبة إمكانية زراعتنا..!

نمتُ طويلًا، صحوتُ فجأةً وأنا لا أدري أين أنا.. أذكر اللحظة الأخيرة التي ودّعتُ فيها صديقاتي البنيّات، إحداهنّ كانت حزينةً جدًّا، ذهبت لبيت عزاءٍ اختلطت فيه الصرخات والدموع حتى إنها غرقت بمياه عيونهم المالحة، أما الأخرى، فكانت ترقصُ فرحًا لأنه عاشت لحظات الحب بين شابٍ وخطيبته، لقد رأتهم يتبادلون نظرات الشغف، تلك التي ذكرتها بصوت العصافير الحائمة فوق فروعنا

الصغيـرة، وهـي تنخـر رؤوس الثمـار وتطيـر فـي الهـواء، تشـعر كأنهـا عاصفـةٌ هادئـةٌ فـي صحـراء عربيـة، تعتمـر بالجمـال الصابـرة، والخيـام المشـرعة فـوق رؤوس أصحابهـا، وهـم يشـربون ويشـربون، ثـم يتبادلـون الشـعر الغنائـي الفصيـح، لـم يفعلـوا بنـا شـيئًا يؤذينـا، لا نحـن ولا أصدقاؤنـا، علـى العكـس، يرمقوننـا بالإعجـاب، ويأخـذون قشـور حباتنـا يجففونهـا مـع القش تبنًـا لحيواناتهـم، ويحملـون فـروع أشـجارنا الصغيـرة نـارًا تدفّـئ خيامهـم فـي ليـل الزمهريـر..

لـم أعـرف أيـن أنـا إلا بعـد أن رأيـتُ حولـي لوحـاتٍ كثيـرة بألـوانٍ زاهيـة، أو بالأسـود الفحمـي، لوحـةٌ بجـواري كانـت بنيـةً شـقراء، إننـي الآن فـي مرسـم فتـاةٍ صغيـرة رسّـامة، أخـذت خثـر القهـوة التي شـربتها أمها، ووضعتهـا فـي الباليـت الخاصـة بالتلويـن، ونقشـت منـي رسـمةً لغابـةٍ فزعـة، يـا إلهـي! لمـاذا كل تلـك الحيوانـات التـي ماتـت مسـمومة!؟ مـن السـبب؟ وكيـف الخـلاص؟!

إنـه وطنـي إذن، شـكرًا لـك أيتهـا الفتـاة لأنـكِ أخبرتنـي عمّـا يجـري، صحيـحٌ أننـي لـن أسـتطيع فعـل شـيء، لكننـي أسـتطيع إقناعكـم أننـا وطـنُ الجميـع، ولا بقـاء

لأبنائكم إن لم تصلحوا بلادَنا..

صحيحٌ أنني لا أنسى تنمّر صديقاتي عليّ.. «أنتِ أصغر حبة بُن حملتها الشجرة!» وتضحك أخرى بسخرية: " لا أعرف كيف ستكونين قهوة في يوم ! مسكينةٌ أنتِ»

قلتُ: "طحن القهوة لا يميز بين حبة بُنٍ صغيرة كانت، أم كبيرة!"

لكنني أحب بلادي تلك، وأحببتُ رحلتي الجميلة الدافئة، أحببتُ عبارات الثناء على لوني ورائحتي، وطاقتي التي أبعثها في الجليد..! لكنني مع ذلك حزينةٌ لأنني أمرّ في رحلةٍ برجوازيةٍ جميلة، بينما أصدقائي يموتون من برد الفؤوس والمناشير الكهربية، وغمامات الغبار السام..!

إنني من النافذة أبصرُ أشياء غريبة.. فقد تزايدت المصانع، بعد اختفاء الفؤوس، بحث البشر عن العديد من الطرق، لتدمير الأشجار، مدن أكثر، وأشجار أقل، ازدحام كبير في شوارع المدن، صناديق حديدية، كانت تبعث سحابات صغيرة، بينما

المصانع كانت تصدر سُحبًا لامتوقفة، رمادية اللون سيئة الرائحة.. لكن على الأقل تشبه سحب الشتاء، الفؤوس من فوق الأشجار تراقب السماء، تلاحظ ازدياد السُحب، فتفرح بقدوم الشتاء، لزيادة كثافة الأشجار، وإبعاد أنظار البشر عنها.. لكن، أضرَّ ذلك الدخان بأوراق الأشجار، فأصابتها الثقوب، والتساقط لتكشف ما تخفي أسفلها، كانت الفؤوس تشعر بالرعب والقلق مما ستلقاه من البشر، لكن لم تتوقع رؤية هذا المشهد الغريب، أمامها الكثير من التغييرات، عرفت مصدر السحب الرمادية التي أتعبت أوراق الأشجار، وأسباب الضجيج تلك لم تكن البراكين، بل كان ازدحامًا مروريًّا..!!

هذه الفتاة تحفّني بالعناية الفائقة، أرى الآن وجه أختها وقد امتقع بالقهوة الجافة، وضعتني على بشرتها لتجعل مني قناعًا يرطبّها ويغذّيها، ثم تضيف عليَّ القليل من العسل، وتغسلني بعد وقتٍ قصير، ثم تمتدح النضارة التي أصبّها عليها، كانت رحلةً شاقةً محفوفةً بالمخاطر، لكنني وصلتُ إلى الميناء بسلام..

فـي مقهـى، ملتصقـة بسـاعة جداريـة، علـى شـكل ديكـور عصـري، يلائـم جـو المكان، يجاورنـي مسـجل صـوت يصـدح بقصيـدة درويـش المميـزة، تضيـف جـوًا شـاعريًا، للزبائـن، هـذا يطلـب قهـوة محـلاة مـع رغـوة إضافيـة، علـى المكينـة ذات الإصـدار الجديـد، هـذي صبيـة تصـوّر بهاتفهـا النقـال أجـواء المكان، وتغـرد بها علـى مواقـع التواصـل الاجتماعـي لتحظـى بمشـاهدات والكثيـر مـن الإعجابـات، تسـتمتع بتقليـب للمنشـورات، وتشـاهد مـا يشـاركه الآخـرون.

وبينمـا ينعمـون بالـدفء اللحظـيّ الغامـر، أفكّـر أنـا الحبـة البنيـة الصغيـرة، هنـا عاشـقو القهـوة الكثـر، لا شـك بأنهـم سـينتجون جيـلًا يحبهـا بالغريـزة الوراثيـة، فـإن ضمـان الكميـة منهـا لهـم هـو الحـل الأنسـب، لعـدم حـدوث مشـاكل عالميـة لاحقًـا!

لكـن مـاذا لـو زاد الاحتبـاس الحـراري، بفاعـل قطـع الأشـجار وانعدمـت مسـاحات زرع البُـن، ولـن يبقـى منهـا سـوى لونهـا البنـي، وقتهـا لـن يعيـش سـوى شـاربي القهـوة وطاحنيهـا..!

ساحر الحجر

سبقني إليها، وفجرّها على مرآي خلال ثوان!

لم أندهش من سرعة الزمن الخاطف، أسرعُ من حجرٍ قذفتُه قبل عشرين سنة، كانت يداي ترتعشان ليس خوفًا، ولكن لأن الحجر الذي أحمله ثقيلٌ عليهما، ولكن اندفاعي غلب طراوتهما..

أنا وجلال كنا طفلين بسنّ الاثنتي عشرة، تدوس عجلات الجيب العسكريّ على ألغامنا المسمارية الصغيرة، فيضطرهم ذلك للترجّل من الجيب كي يتفقّدوا عجلاته الأطول من ساقينا المنتصرتين لحظة الركض..!

أصرّ جلال على أنه هو من سيقذف الحجر الأول، وحين سألتُه: مَن سيكون هدفكَ الأول!؟ أجاب: لا أعرف، لكن الحجر سينطلق نحو من يستحقه!

أنا وجلال تشاجرنا كثيرًا من سيسبق من في كثيرٍ من المواجهات، ولم يحصل مرةً أن غلبتُه، كان يسبقني دومًا عن رضًا مرةً وعنوةً مراتٍ أخرى..

قذف حجره الذي فاق حجري، كان قد دقّ به مئة مسمارٍ جرحت كل أصابعه، لكنه لم يتأثّر،، لكن الهدف فعلًا كان يستحق، فقد أصاب فم أحدهم الذي يبدو أنه كبيرهم، لم نر لحظة الإصابة لأننا اختبأنا خلف الجدار والبراميل الحديدية قربه، لكننا رأينا فيما بعد الصراخ والدم المتدفّق من وجهه.

لم أتوقّع تلك التسديدة الاحترافية، على عكس جلال الذي ضحك وعبّأ الهواء ونحن نركض هاربين من رصاصهم المطاطيّ وهراواتهم التي ألقيت علينا، استطعنا أن ننزوي بين الناس في السوق المجاور لساحة المواجهة، واستطعتُ قبل الهرب بثوانٍ أن ألمح حجري الذي رميتُه يقع على حافة زجاج

الجيـب دون أن يحـدث بـه ولـو خدشًـا..

أمـا الآن، أنـا وقـد عرفـتُ بـأن جـلالًا قـد استشـهِد كمـا تمنّـى دومًـا، شـيّعته بجنـازةٍ صاخبـةٍ وثائـرةٍ فـي قلبـي الغـضّ بعـد عشـرين سـنة ويزيـد!

أزورُ قبـره الـذي كان طويـلًا ورفيعًـا، كَسـاق زهـرة شـقائق نعمـان، ملقـىً علـى رصيـفٍ جرّفـت الدبابـات كلّ مـا حولـه، وبالـكاد عثـر أصدقـاؤه علـى جثتـه ملقـاةً فـوق شـجرة زيتـونٍ معمّـرة بعـد أن قذفـه الصـاروخ فوقهـا..

أقـرأ الفاتحـة، وأنـا أراقـب حجـره وقذيفتـه محليـة الصنـع فـي آنٍ واحـد، أذكّـره بذراعيـه النحيلتيـن، كيـف اسـتطاعتا حمـل تلـك الراجمـة وإصابـة المدرّعـة المفترسـة أمامـه؟ وكيـف تحـوّل الحجـر إلـى نـار بيـن يديـه وكأنـه عابـدٌ يلقـي بترتيلـة الصبـر والقهـر بيـن يـدي الزمـن، ووحـده كفيـلٌ أن يحقّـق تلـك النبـوءة الخارقـة...!

ابنُ شمّة

أفقٌ معبّق برائحة الغبار والدمّ المتجلّط الذي يسُدّ الأنوف، تتعانق فيه درجاتُ الرماديّ، والأصفر، الأصفر والرماديّ.. تباينٌ يجعلني أرى كلّ شيءٍ أمامي كبندول ساعة، وكالمسبحة التي في يدي والتي وقعت مني ثلاث مراتٍ أو أربعة خلال طريقي هذا.. لا أعرف كيف له أن يكون طريقًا وأبعاده ممحية! طريقًا ليس فيه لافتة تدُلّني على عنوان، أيّ عنوان ربما أمشي أنا نحوه، وهو يبتعد عني، لا إشارة مرورٍ تكبح جماح هذا الزمن المجنون..

تطُـلّ الشـمسُ تخـدِشُ بهـوت السـماء الزرقـاء المعتِمـة ببهـوت أشـعتِها، تثيـرُ ذاك الشـعور المميـت، فـي دواخلـي وكأنهـا منبـهٌ لتجـدده.. هـو الجـوع، أصارعـه ويصارعنـي، ينهـشُ بدنـي ويسـاوي جلـدي بعظمـي، كـم سـابقته لرغيـفٍ، ولـو لرغيـف لكنـي لـم أصِـل ولـم يصِـل، فكِلانـا أبطـأ مـن رصاصـةٍ تختـزل العمـر! وهـا نحـن الآن نمشـي متوازييـن، وسـط هيـاكل المدينـة وأشـلاء الشـهداء، تلُفّنـا صرخـاتٌ بعيـدة، تلاطُـم أمـواج البحـر القريـب، الـذي يطعـنُ هـذا الصمـت المميـت بسـكين حركـة موجاتـه، لكن قنّاصـات المـوت المتخفية، تحيـطُ بـي أنـا وحـدي، حامِـلًا عجـزي وعُمـري، هائمًـا فـي فضـاء المأسـاة، وأنسـابُ مـع الريـح كيفمـا تريـد، فأنـا بـلا اتجـاه، لكنهـا زفـرات المحتضريـن فـي الشـمال ورائـي، تدفـع بـي جنوبًـا صلـواتُ أمـي ابتهالاتهـا، بشـفتيها المتحجرتيـن وحلقِهـا الجـاف كطقـس خماسـين، وكلّ ذلـك يحملنـي خفيفًـا خفيفًـا، بـلا متـاعٍ أو كلام إلـى الجنـوب المسـتميت.

القنّاصات حولي، تبتلعني نظرات ترقّبهم لي وأنا الهدف السهل، كمَن يكمِن لاصطياد أرنبٍ بريّ وسط الأحراش، تزايدت اهتزازات الأفق في عينيّ، أطرقتُ بضياع كغرابٍ أضلّ مساره، في ليلةٍ يتيمة من ليالي الشتاء على غزّة! حيثُ ترتعش فيها الأضواء كيديّ بائع «العوقا» عند الرصيف، وقد جرّ عربته وفرّ بعجلاتها الصغيرة فوق الرصيف، بعدما كان ينتحي بجوانب الإسفلت، والتي أضحت نهرًا جارفًا بعد مطرٍ غزير! تلك الشمس عاودت الانتصاف، وقابلت رأسي الصغير تحت عظمة وهجها الناريّ، تعطي عمرًا جديدًا للأحياء وآخر لجثث مَن ماتوا.. وتترك لنا الظلال شهيدة على هذا الوجود الذي، شابه عدمه !

بِرجليّ المتورمتين مشيتُ، وكلّ ما أعرفه بأني قطعتُ شوطًا لا بأس به، فذلك حذائي قد خلِع نعله يخبرني بهذا، أنا أحقق إنجازًا في تجاوزي مسافة جيدة في هذا البرزخ، لكني فشِلتُ بسببه في اختبارٍ خُضتُه سابقًا، وقد أقحمتني فيه أمي، قبل زمانٍ

لا أجيدُ حسابه، حين وقفت عند الباب الذي خلِع مقبضه، بعدما قطعت ممر البيت ذا السبع بلاطات، وبرجليْها الحافيتين، حاولت أن تبدو منتصِبة أمامي، تغالِب ذلك الانحناء الذي لفح بقامتها القصيرة، وجعل من ظهرها قمة لجبلٍ جديد الوجود كانت كجذع شجرة تينٍ عتيقةٍ، رفعت رأسها نحوي، فتلاقت عيناي بعينيها الغائرتين، والسوداوتين كأن ليلةً صيفية استكانت في تجويفهما، بالهدوء والسكينة التي عهدتُ والدتي ملازمة لهما، ورغم كلّ التعب الذي ألمّ بها، كانت تلك اللحظة قادرة على إيقاف الزمن الذبيح لمأساتنا، كانت عميقة للحد الذي محتْ كل هذا الوجود، محتْ غزةَ ودمارها، شحوبها، وكأنّ الأرض اختفت من تحتنا، ولم يبقَ منها سوى عتبة بابنا، وعينيْ أمي..

وانخرست كل الأصوات في دواخلي، وخارجي الأصمّ، ولم يقطع هذا التحليق في أعالي فراغ الصمت ذلك، سوى صوت تضارب خرزات مسبحتها، والتي لم تفارقها لحظة!

قالـت: أيّ الحذائيـن سـتنتعل؟! لا أعـرف، أجبـتُ فـي عـدم مبـالاة! زمّـت شـفتيها فـي عـدم رضـا، وأتبعـت بعـد هنيهـة: أَتعـرفُ لـمَ سـميتُك ثابتًـا؟!

حككـتُ رقبتـي مـن الـوراء، بأصابعـي التـي شـابهت أغصـان زيتونـة الجـار أبـو نعيـم الجافـة والمعطوبـة، -والتـي لـم يعـرف مـا سـبب مرضهـا، إلا أنـه لـم يفـرط بهـا، حتـى بعـد فشـل محـاولات علاجهـا!-، قلـتُ :هـل لأنـه لـم يعجبـكِ، اقتـراح والـدي فـي تسـميَتي سـعيد؟!

تـوارى نصـف طيـف ابتسـامة علـى خطـيّ شـفتيها، لـم تقـدِر أن تظهـره كامـلًا! لكنهـا همسـت بسـعادةٍ دفينـة الزمـن، مبعوثـة مـن مـاضٍ بعيـد: ربمـا، لكـن الأهـم هـي رغبتـي الكبيـرة فـي أن يكـون لاسـمك نصيـبٌ مـن شـخصيتك، وقـد كان حـدَّ العنـاد وليـس الثبـات..

وهـل أنـا كذلـك؟! سـألتُ وقـد داعبنـي صوتهـا فـي كل مـرة نادتنـي فيهـا باسـمي، ومـا أكثـر المـرات التـي تقولـه فيهـا بثقـةٍ وفخـرٍ كبيريـن! حتـى فـي اللحظـات الغارقـة بالحـزن والوجـوم، تمامًـا كهـذه اللحظـة، تحـدّق بـي كعنقـاءٍ، وتقولـه بالنبـرة الأقـرب للتحـدي، هـل

تتحدى أمي بي هذا الواقع ومآسيه؟! أتستمِد قوتها من هذا الاسم؟! كلا، استحالة أن تكون هي بحاجةٍ لشيء هو بالأصل وليدُها!

تلك العبرية، وخزت أذني كإبرةٍ، يهتفون ويصرخون كالمسعورين، توقفت المرأةُ التي تدفع بعربةِ طفل فيها صبيٌّ لم يتعدَّ السنتين، ويمشي بجوارها شبحٌ لصغيرة بعمر السبع سنوات، وقد لحظتها هي وأبناءها مؤخرًا، تأتي من جهة البحر، نحو الشارع العام، وسرعان ما اختلطت هتافات الجنود بأمرِنا بالتوقف، مع بكاء الصغيرين وعويلهما، أما الأم فقد تمالكت نفسها بطريقةٍ ما، وراءنا مباشرة كان هنالك شابان، ورجلٌ أربعينيّ تبيّن بأنهم كانوا خلفي منذ مدة، لكن امتناعي عن النظر وراء كان السبب في عدم رؤيتي لهم، و كلٌّ يسير وحده، ويغرق في تعبه وهمّه، لكنّنا الآن على مقربةٍ من الحلّابة، انشلّت أقدامنا وانغرست في الأرض، كدالياتٍ قديماتٍ وضعيفات! أشار إلينا أحد الجنود بالاصطفاف طابورًا، لم يكُن أول طابور، يتوقف خلاله عمري،

ويأمـل انقضـاءه، لكنـه كان طابـورًا تمنيـتُ خلالـه أن ينقضـي عمـري ويفنـى، لأنـي عرفـتُ بـأن هـذا الطابور لانهايـة منـه إلا بمعجـزة!!

مسـبحةُ أمـي، دعواتهـا التـي سـمعتُ صداهـا بقلبـي، تنزّلـت علـى إثرهمـا معجـزةٌ انتشـلتني مـن الحلّابـة حافيًـا بـلا حـذاء، ومـن بحـر شـتائم وإهانـاتٍ جمّـة، تركـت داخلـي ندوبًـا لـن تُمحـى!، بـدأت معالـم الطريـق تتضـح، كان هنالـك بقايـا لإسـفلتٍ صلـبٍ وجامِـد ورمـادي، بأصابعـي التـي ذابـت مـن سـخونة الرمـل، وتشـرّبت دمًـا ووجعًـا كان كامِنًـا فـي الأرض منـذ شـهورٍ وربمـا سـنوات، جريـتُ أتقافـز أحـاول أن أطيـر لكيـلا تلامـس جـروح قدميّ حجـارة الإسـفلت، خشـيتُ علـى هـذا الطريـق الواضـح، مـن أن يغـرق بالوجـع الـذي اسـتقرّ فـي أرجلـي! فواصلـتُ الركـض إلـى أن توقفـتُ أجـذبُ أنفاسـي، وكأنهـا الأخيـرة كنـتُ خائفًـا من أن تنشـلها الغربـان الطريـدة، وتهـرب بهـا بعيـدًا! كان بدنـي قـد تصيّـر لعـودٍ هـرِم، ينتظـرُ أن تكسـره انحنـاءة عصفـور..

رجّني اهتزاز رنين الجوّال، ربما هذه المرة الأولى التي يتصلُ بي أحدهم منذُ أشهرٍ من وصولي الجنوب! كانت المكالمة من رقمٍ مجهول لكني لم أتردد في الردّ، وفتح خط الاتصال لأسمع صوت الطرف الآخر، كان صوتًا مبحوحًا وجرحه الزمن، يهتزُّ ويرتعشُ، يشهق ويزفرُ في تعبٍ ووجع بادييْن، وحوله غطاء من الضجيج، حاولتُ التعرّف على الرقم أو الصوت ولم أفلح، لكنه قاطع ذلك التنقيب في ذاكرتي عن هويته، قائلًا: كيف حالك يا ثابت يا بني، أنا عمّك أبو نعيم!

آه، عمي أبو نعيم كيف الحال، صارلي أسبوعين، لا شهر، شهر كامل والله! بحاول أتصل عليك! كيف الحجّة أمي إذا هي حواليك أعطيها الجوال بدي أحكي معها ضروري!

قلتُ وقد تدافعت أنفاسي كأني أغرق في حديثٍ وضعته مسبقًا، وأريد أن أسرده الآن على مسامع أمي لا غيرها!، أجاب أبو نعيم، وربما قاطعني: ثابت... قاطع نفسه بالسعال مرتين وثلاث، أردف: ثابت عظّم الله أجرك..

فيمـن؟!! سـألته كالأبلـه أجابنـي: الحجّـة الوالـدة استشـهدت ...

لـم أبـكِ، لكنـي واصلـتُ غرقـي نحـو الأسـفل فالأسـفل، فـي بحـر حديثـي ذاك، الـذي لا يـزال سـاكِنًا ينتظـرُ صـوت والدتـي علـى الطـرف الآخـر لأخبرهـا عـن مـا حصـل، بـي ومعـي!

عـن ذلـك الجنـوب الصخِـب بالهمـوم، وأصـوات الباعـةِ والهتافـات والمشـكلات، وأزيـز طائـرات الاسـتطلاع التـي تظهـر كذبابـةٍ فـي سـمائه، وعنـي عندمـا مشـيتُ بيـن حشـود النـاس، وخيـام النازحيـن، وممـرات التشـرّد المقهـورة، كيـف حيـن عـرف النـاس بأنـي نـازحٌ مـن الشـمال، احتفـوا بـي كمعجـزةٍ قذفتهـا السـماء إليهـم، يتأملوننـي، ولا يوجهـون إلـيّ سـوى الأسـئلة، والصدمـة التـي تلاشـت لـدى الكثيريـن!

وعـن مسـاعدة صديـقٍ لـي فـي معالجـة جـرحٍ عميـقٍ أصـاب رجلـي اليمنـى، وذلـك حـدث عندمـا جـاء دوري

للمرور بالحلّابة، بعد ثلاثة أشخاصٍ نالوا نصيبهم من التعذيب والابتزاز والقهر، عندما لحظني الجندي بنظراته الحادة، وسرعان ما طلب مني أن أخلع حذائي، -ربما لاحظ عطبه-، وأراد لي الشقاء بالمشي حافيًا، خلعته بهدوء وقابلوا ذلك بالضحكات والشتائم، وكلّ ما يجعلني أشعرُ بأن كرامتي هي التي سُلِبت لا الحذاء فحسب، وحين سألني: إنتَ شو اسمك؟! لم يكن عِبريًا، أطرقتُ لثوانٍ وقلت مستدركًا: ثابت!

ردّ آخر: اشلخ جزمتك، وانقْلع! وبعدها شدّ حقيبتي وأفرغ ما فيها، من أشياء غير مهمة، وأمرني أن ألملمها وأنصرف حافيًا!

كنتُ أريد أن أخبرها بأني قلتُ له كما أوصتني دومًا: أن اسمي ثابت، لا ابن شمّة كما كنتُ أفعل في صغري، وأجيب على مَن يسألني عن اسمي أني «ابن شمّة»، وكانوا يندهشون لذلك الرد! وأني حينما ودّعتها عند الدرج، وقلتُ بصوتي المبحوح

كراديو الأخبار: بحبِّك يمّا! وأشارت لي بأن أخفض صوتي قائلة: ماذا يقول عنّا الجيران في وضعٍ كهذا، جوع وحصار، يهتفُ أحدهم بأحبك، بدلًا من أن يقول: وجدتُ «كابونة» أو رغيف خبز!

أتبعتْ: وأنا أحبك الله يرضى عليك ويوفقك يا حبيبي يا ثابت، اذهب وقلبي معك! مدّت مسبحتها نحوي وأردفت: لازِم الذِكر والدعاء، ادعُ لي ولغزة كلّها! وعندها انسلّت المسبحة من يدها، واستقرت في يدي، حررتُ دمعتين حارقتين شعرتُهما تغرِقان البلاط، -لأنها تطلبُ مني الدعاء لها لأول مرة-، شدت على يدي وقالت في عزمٍ وصبرٍ :لا تبكِ يا بني، ولا تشُكْ أبدًا بما أنت مُقدمٌ عليه، اقطع طريقك إلى رفح، وسافِر إلى السعودية واسعَ لاستعادة مشاغلك في الحرم! كنتُ أريد أن أخبرها بأني نادمٌ لأني لم أهتف عشر مرات بـ: بحبك يمّا!

وأني لم أتأخر عن التسجيل، والدفع للشركة المسؤولة عن السفر، بمبلغ غير بسيطٍ بالمرّة، وهو

مـا ادخرتُـه مـن آخـر راتـبٍ استلمته، وثمـن سـواريْها الذهبييـن، والتـي باعتهـا لتعيننـي علـى إكمـال المبلـغ الـذي أحتـاج..

وعنـد توجهـي إلـى المعبـر واستفسـاري عـن سـبب عـدم إدراج اسـمي مـع مسـافري شـهر شـباط الجـاري، كمـا يجـب أن يحـدث، أخبرونـي: بـأن جـواز سـفري مختـومٌ بختْمٍ أحمـر، يمنعنـي مـن الخـروج مـن غـزة أو السـفر!

كنـتُ أودّ أن أخبرهـا أن تلـك الأيـام مـرّتْ كالوهـم، وأنـي كنـت أنـام وأصحـو علـى فشـل اتصالـي بهـا، أو حتـى أبـو نعيـم جارَنـا والـذي اتفقتُ معـه أن نبقـى علـى اتصـال، مـا أمكنـه الأمـر، لأن يطمئننـي علـى أحوالهـا، لأنـي أعـرف بأنهـا لا تجيـد التعامـل مـع الجـوّال جيـدًا، وأنهـا حينمـا جعلتنـي أسـتودعها وأودّعهـا فـي الشـمال المحاصـر، لأنهـا ببسـاطة عاجـزة وكثيـرًا علـى قطـع ذلـك الطريـق الطويـل والـذي بـدا أبديًـا ولا خـلاص منـه، وقالـت لـي بعـد محاولاتـي بإقناعهـا، فـي القـدوم معـي إلـى الجنـوب، وأن تصاحبنـي فـي السـفر، إلـى

السعودية: أتحسِبُ أن الخمسين سنة هذه، قادرة على إعانتي على السفر إلى الجنوب والسعودية أيضًا، أكتفي بهذا العمر لا أريد من الدنيا أكثر من ذلك!!

وأني كنتُ أعرف أنها تجاوزت نصف عقدها السادس! واكتفت به واستشهدت، كما تمنّت في رضًا وطُهْر وقناعةٍ جليْن!

العالمُ فيها..

يستعدُّ لسفره، القريب البعيد، الممتع الصعب، لا أحد إلا الله يعلم كم قاسى ليجمع مبلغ التذكرة للوصول هناك، تلك التي راوده الحلم في ليله، والخيال في شروده من أجلها..

أما عنه، فهو نافذ الشاب البسيط الطموح، تلوّن دمه بهتاف النشيد الوطني، بعد مبارياتٍ ساحقة مع أولاد المدرسة وجيران البيت وهم يلعبون بكرته الـ(ميكاسا) القوية والفريدة في المنطقة، كان ينام ليله وهو يمسك كتابه مفتوحًا على قصيدة بلاد العرب المطلوب منه أن يسمّعها غدًا أمام الطلاب!

يجمع ما يلزمه في حقيبة سفره، أعلام كل البلدان العربية التي سيشجّعها ويلتقي بأهلها هناك، ميدلياتٌ بأسمائهم، ومعلوماتٌ عن بلادهم وفِرَقهم..

في طريقه لجَنة الأرض، لحلمه.. استقبله المطار والشغوفون بالكرة المتدحرجة على أرضٍ تدبُّ عليها أقدامٌ تعشق التحدي..

ملاعب عالمية، أسرت القلوب وجرّت الأقدام نحوها، ذاهبٌ وبيده الكرةُ الأرضية لجغرافيا الوطن العربي والأجنبي..

بعد الوصول، كانت الفرحة التي تناثرت عن أيادي حقائب المسافرين إلى هنا، قد ملأت الثغرة التي تركها الخوفُ في قلبه، ماذا رأى؟ كان الوحيدَ الذي يحمل وجوههم وأعلامهم، بينما الجميع يحملون شيئًا واحدًا..

غريب! أين الأجانب، السُمر، العرب، والآسيويون؟؟ الكل يحمل ألوان علمِه، أكلته الدهشة، كأنه في الحلم الذي رسمه يومًا، ولكن يبدو أنه حلمٌ خُلِق ليتحقّق على غير العادة..

الأصـوات، الهتافـات، الوجـوه، الأعـلام، كلّهـا نُسـخٌ مـن علـم وطنـه، الـذي تركـه معلّقًـا علـى جـدار غرفتـه، أصـوات المشـجّعين تتعالـى تهتـف لفلسـطين، ومنتخـبٌ عربـيٌّ يعبـر إلـى قلـب الملعـب وصفّـارة الحكـم تعلـن البـدء، فـي اللحظـةِ التـي أمسـك بيـده أعـلام الوطـن العربـي، فيمـا الجميـع يحملـون علمًـا واحـدًا..

حلقة في مثلث

فوق السرير، ماثلة على الوضعية ذاتها منذ ما يقارب ساعتين ونصف! بظهرها المحدب، وركبتيها المثنيتين، تسند الكتاب عليهما، على طاولة تجاور السرير، تضع مرفقها، وعلبة بسكويت، اشترتها عند عودتها من المدرسة، وقد فرغت نصفها في بضع ساعات، رُفع الأذان، لا تعرف في أي وقت هي، كل ما تفعله هو انتزاع الكتاب من يدها، بشكل صعب.. أشبه بانتزاع قطعة الحديد، عن مغناطيس تعدت قوة جذبه الحدود!

صعب هو التوهج في محيطٍ منطفئ!

هـي الآن أدركـت فكـرة خروجهـا مـن بيـن صفحـات الكتـاب، والآن سـتعمل علـى تفعيـل جميـع حواسـها لتعمـل بشـكل طبيعـي، كقبـل فتحهـا الكتـاب مثـلًا.. وذلـك لأنهـا كانـت غارقـة فـي عالـم آخـر، ومعنـى عالـم آخـر، وغـرق .. فهـذا يحتـاج وقتًـا لشـرحه، لكـن كل مـا نعلمـه عـن قارئـة نهمـة، هـو سـفر دماغهـا فـي جميـع أصقـاع الأرض، فـي لحظـات، وهـي تتحـدث، سـتأخذُك أحيانًـا معهـا!

لا شـك أن ذاك العالـم، أكثـر جمـالًا مـن عالمهـا هـذا، لـذا فإنهـا دائمًـا تتحكـم فـي شـدة حماسـها وتفاعلهـا، حتـى لا تنسـاب، بتوهجهـا فـي عالـم منطفـئ، سيسـلبها البريـق بـلا شـك، ويرمـي بهـا رماديـة باهتـة، لـذا فـإن الإشـعاع، عنـد الضـوء، لا يعمـل إلا علـى زيـادة النـور فـي الوسـط، فهـي تختـار دائمًـا، أيـن تنشـر بريقهـا.. وكيـف؟!

مـن السـرير إلـى سـجادة الصـلاة، وبزاويـة حـادة اتجهـت نحـو الطاولـة لتنـاول البسـكويت، وأخـذت كتابهـا الـذي سـكن هنـاك بضـع دقائـق، وبضلـع مستقيمٍ آخـر، نحـو الأمـام بزاويـة حـادة أخـرى، نحـو المكتـب،

تعود للغرق، والبريق، كتابها كان محيطًا لامعًا حقًا!

مثلث، كانت حياتها، تلك القطع المستقيمة التي تنتهي كل منها، برأس، طعام، صلاة، وقراءة، ثم لا شيء آخر، في زوايا مثلث حياتها ذاك، كانت تنزوي بكتبها، لتأخذ المزيد من الوقت، لتقرأ..

مَن كان يتصور، بأن تلك الرؤوس الثلاثة ستُشكِل امتدادات، في كل مكان، ليس هناك زوايا، لم يعد هناك وقت، لكتاب في زاوية، هذا مؤسف!

أربعة رؤوس، ابن، طعام، صلاة، وقراءة! لا بأس هناك زوايا، لكن ذلك الابن الصغير، بدأ يزحف على قدميه، وما فتئ عن الجلوس مع أمه في تلك الزوايا، هذا متعبٌ عليها.. الصغير، لم يعد يترك مجالًا، أو بالأحرى زاوية! لأمه مع كتاب، تحبه أكثر من أي شيء، لكن القراءة ليست شيئًا، إنها هي، ولا تستطيع وضع ابنها والقراءة للكتب، في سؤال مقارنة حتى.. لصعوبة الأمر، وغرابته..، تحتاج الكثير من الوقت لتستوعب، بأن هناك أمرًا يشغلها عن القراءة، بل هناك خيار أهم، أو أوْلى

مـن الكتـب.. ذلـك حقًـا صعـب!

- ماما..

- انظر قال ماما!

لا بـأس الابـن الصغيـر فـي كفـة، والكتـاب فـي كفـة أخـرى، والزوايـا تتسـع! هـا هـو بـدأ يمشـي علـى قدميـه، وقد بدأ يملأ جميع الزوايا، لا مكان للكتاب، إذن لا خيـار سـوى الاهتمـام بابنهـا وفقـط،

- أحبكِ ماما!

- وأنا أكثر يا حبيبي..

الزوايـا أكثـر، وأمـور أخـرى تملؤهـا، أول الأمـور هـو ابنهـا، ثـم لا نهايـة.. لأمورهـا!

- أمـي لـدي اختبـار غـدًا، انظـري لهذا لا أسـتطيع فهمه!

- تعال، لأشرح لك ذلك.

كلمـا زادت الأضـلاع أهملتهـا، ورمـت بهـا فـي المنتصـف، لـم تعـد هنـاك زوايـا كثيـرة تحتضنهـا

كالسابق! غريب لمَ يحدث معها كل ذلك، هل هو بسبب ابنها؟ لكن هناك الكثير من المسؤوليات على عاتقها، حرمتها من التمسك بزاوية، واحدة لتنزوي على نفسها، وتعيش كما السابق..

- أمي، حفل التخرج سيكون يوم غد، ستحضرين أليس كذلك؟!

- بالطبع يا عزيزي!

- هل تعرفين عنوان الجامعة أم أعطيكِ إياه؟

- أرسله لي على الهاتف، حتى لا أتيه عن الموقع.

بدأ شكل الحياة، يهمِلُها، وهي تبتعد عن الزوايا، أو ربما لم يعد هنالك أي زاوية تحتضنها وكتابها، لتمنحها وقتًا ولو بقدر لحظة من شرودها، في حياتها السابقة..

- أمي، سفري سيكون طويلًا، أحتاجكِ معي!

- لا تقلق أنا معك.

السير، مثل شعاع، لا يعرف نهايته تمامًا، ربما لأنه

يقرأ، ليس لفكره حدود من يأس، كانت هي تسير، وتلاحقها مسؤولياتها التي لا تنتهي، وكلما كانت تتجه نحو الأمام، كلما شعرت بإهمال الحياة لها، تتقدم للأمام، تبتعد عن الهدوء الذي كانت تعهده.. حين صغرها..

- بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير، يا بني..

توقفت في المنتصف، تبحث حولها، عن أي زاوية، تلجأ إليها وتعيد من هدوء الماضي القليل، مهمتها انتهت على الأغلب، والآن بعض الوقت، لنفسها مع كتابها، في زاوية الطفولة مثلًا، أو حتى الشباب، قبل أن تتسلل الأقدام الصغيرة، أو الطالب المدرسي ذاك، أو الشاب الجامعي إلى المكان! لكنه الآن تزوَّج، وتركها وأخيرًا لتستمتع كالسابق، لكن ليس الآن، لم تعد بين الزوايا، هي مركز دائرة، تخلو من الزوايا، واسعة، فارغة من معاني الشعور التي عهدتها، التي أحبتها في الماضي.. "أحضرتُ لكَ علبة ألوان، لتلوِّن يا صغيري".

- شكرًا يا جدتي، هذه أروع علبة ألوان حصلت عليها!

أخذها الصغير بحماسٍ كبير، وركض نحو غرفته، وأحضر كراسة رسمه الصغيرة، وشرع بعرض الألوان الجديدة، واحدًا تلو الآخر، وبدأ بالرسم.

سأل وهو يركز ناظريه على الكراسة: "جدتي!"

- نعم يا صغيري.

- سأرسمُكِ، وأحيطكِ بطوق وردٍ دائري..

شردت قليلًا، في ماضٍ حاصرها بدائريةٍ بائسة، لم ولن تستطيع الخروج منها مدى حياتها، دائرة مثل أصفاد حول رسغ يدها، مثل حبل يلفُّ عنقها، مثل دوامةٍ تبتلعها، هي تكره الدائرية: "لا ترسمني في دائرة، ارسمني".

- في ماذا أرسمك إذن يا جدتي؟

- في مثلث!

جورب بغردة واحدة

البيع على الكورنيش هو الأفضل، هنا تجمعاتٌ للباعة، والعربات، المارة، والمستهلكين كذلك..

لكنه مسكينٌ! حدَّ الوحدة في كرتونته التي تملؤها الجرابات الصوفية، لآخرها، في وسط ضجيج الرصيف، وهتافات الباعة جميعًا، وحدةٌ فريدةٌ من نوعها حقًا..!

"أيريد أحدكم شراء جرابات صوفية، رائعة، جرابات صوفية،.."

هو يكرّر هذه العبارة منذ صبيحة اليوم، أو حتى منذ أيام، ولا تتلقى تلك البسطةُ ولو حتى نظرة

اعتبارٍ من قِبل المارة، والعابرين.. كان ينظر بدهشةٍ لأولئك الذين يشاركونه المهنة ذاتها، بيع مناديل معطرة، أو بسكويت، أو علكة، مياه معدنية، كانوا غريبين في أطباعهم بالنسبة إليه، كيف يتجرؤون أن يتهجّموا على المارة، يتعلّقوا في ملابسهم، يقومون بالتوسّل لهم، هو ليس توسّلًا في نظره يبدو تسوُّلًا!

الفرق بين بائع الجرابات الصوفية، الصغير هذا، والآخرين من باعة العلكة والبسكويت، هي عزة نفسه، وشيءٌ من الطبع النبيل، لكن يجمعهم الفقر والحاجة، بل ربما كان صغيرنا أكثر بؤسًا من بعضهم.. وكثيرًا ما يلاقي تهميشًا من قِبل العالم يجعل منه بائسًا، وأحيانًا يتسبّب له بشيءٍ من الانهيار، فيتبين له لاحقًا بأن هذي المهنة الغريبة، تتطلب شيئًا من انعدام الشعور والكرامة.

أما عن تلك الجرابات فإن والدته هي من تحيك تلك الأزواج، وهي بارعةٌ في ذلك، لكنه يتطلب منها الكثير من الجهد، والذبول في جفنيها من التدقيق في تنسيق الغرزات.

أمي دائمًا ما تمارس، حياكة الصوف ببراعة

أصابعها الرفيعة السحرية، وعينيها التي سلِب النور منهما، لدى أمي قدرة سحرية في تمييز الخيوط، وحتى ألوانها! بعينيها المصابتين بالعمى، في كل ليلة تقريبًا، تجعل الخيوط تتعانق في يديها، وتجعل منها أجمل جرابات، رأيتها في حياتي، إن الجارات دائمًا ما يقُمن بنُصحها لحياكة شيء آخر، غير الجرابات، وذلك حينما دار بين نسوة الحارة وأمي الحديث المعهود، "ألا تفكرين بتغيير، الحياكة الصوفية تلك، كأن تحيكي الأوشحة، الناس تفضِّل الأوشحة أكثر من الجرابات يا كوثر!".

- لا أوافقكن الرأي، الجرابات تلزم جميع الناس في الشتاء، لا يهوى الجميع ارتداء الأوشحة..

دائمًا ما تنجح أمي في الخروج من نقاشاتهن الطويلة تلك، متفردة برأيها بشيء من الانتصار.. لكن الأسباب التي تطرحها والدتي، على تلك السيدات، لا تمُت أحدها إلى سببها الشخصي بِصِلة، أمي لديها اعتقاداتها الخاصة كأغلب الناس، الكل لديه اعتقاداته الخاصة، لكن اعتقاد والدتي هو الأكثر بؤسًا، هو الذي حرمنا بعض الأشياء، أو أغلبها.. قبل خمس

سـنوات ماضيـة، كان والـدي أحـد ضحايـا السـكري المزمـن، والـذي انتهـى بـه المطـاف ببتـر قدميـه.. وفـي الفاصلـة بيـن عبارتـي الأولـى والثانيـة، هنـاك تضحيات قامـت بهـا والدتـي مـع أبـي رحمـه الله، كأن تصنـع لـه الجرابـات لقدميـه، اللاتـي أمِلـت أن يرفـع عنهمـا ذلـك الحكـم الطبـي، ببترهمـا، لكـن قـدَّر الله ومـا شـاء فعـل، ومـن هنـا تبـدأ سلسـلة لا نهايـة لهـا مـن الشـؤم والتطيـر، توقعـت أن تقلِـع أمـي عـن حياكـة الجرابـات، لكـن الأمـر اتجـه بشـكل عكسـي.. بشـكل غريـب للغايـة!

- أترغـب فـي شـراء زوج جـرابٍ صوفـي يـا سـيدي؟
- هات لأرى.
- تفضل.
- ممم، لا بأس بواحد، بكم تبيعه!؟
- بخمسة!
- خذ هذه.

"شـكرًا لـك يـا سـيدي». هـذا إنجـاز بـاع واحـد! ربمـا لأن الفتـى لـم يعـش مـع أبيـه طويـلًا، فقـد كان حسّاسًـا

ومعنى ذلك، أن البكاء كان يراود مقلتيه في كل دقيقة، لا أحد يلحظها، غير من في السماء، وحجارة الرصيف القاسية عليه كذلك، كل شيء قاسٍ، حتى الاستلقاء في حضن أمه بات مؤلمًا، كل شيءٍ يبدو غاية في البؤس، في نظر الصغير، يبيع راحة عينيّ أمه بسعر بخس للمارة البائسين، ناهيك عن الذكرى المرتبطة، من بتر قدم والده، وغيرها من المآسي، هو لا يشعر بالراحة في كل ذلك.. هو يريد أن يبكي وفقط..

مجموعة من الشباب يتمشون في الشارع، يحملون هواتفهم، بعضهم يمد ذراعه نحو الأعلى ويصور فيديو، وآخرون وقفوا لالتقاط الصور، متخذين من البحر خلفية زرقاء، لا تجعلهم مضطرين لوضع التأثيرات على الصور، فجمال البحر كان خلابًا في ذلك اليوم، وكل يوم لكن ذلك الجمال كان يضيع على الفتى، وهو يركز ناظريه على الرصيف، وأحذية المارة التي تعتليها أقدام طويلة، تمتد نحو الأعلى لا يدري، عند أي امتداد هي تتوقف! الأحذية ذات العجلات، يجري بها الفتيان على أرض الساحة الصغيرة هناك، أطفال يتهافتون لشراء غزل البنات،

وآخـر يبيـع قصـص أطفـال، يعرضهـا علـى المـارة تـارة، ويقرأهـا للأطفـال أخـرى، الفتيـات يلتقطـن صـورة جماعيـة، الفيديـو لا يتوقـف عنـد هـذا الحـد، طائـرة تصويـر، تحلـق فـي السـماء علـى بعـد خمـسٍ وعشـرين متـرًا عـن الأرض، الصغيـر ينـزوي فـي زاويتـه المعهـودة، ينـادي بصوتـه الـذي جرحـه الهتـاف المتكـرر، منـذ وقـت طويـل، الكاميـرا تنتقـل إلـى سـيدة وقعـت محفظتهـا، والنـاس تسـاعدها للبحـث عنهـا لإيجادهـا، تعـاود المـرأة خطوتيـن للـوراء، وتقـف تمامًـا قبـال كرتونـة الجرابـات، تحديـدًا هنـا وقعـت المحفظـة، تلتقطهـا.. وتذهـب فـي حـال سـبيلها والكاميـرا تتوقـف هنـا، عنـد بائعنـا الصغيـر وكرتونتـه البسـيطة، "أبيـع عينـي أمـي، وقـدم أبـي، مَـن يشـتريهما؟!

يقـول المصـور: "وهـذا بائـع جرابـات، أو ربمـا عيـون وأقـدام نحـن لا نـدري، دعونـا نسـأله!

- أبيـع الجرابـات التـي دفـأت قدمـيّ أبـي الـذي كان مصابًـا بالسـكري، والتـي تتحسـس أمـي خيوطهـا لتعـرف كيـف تحيكـه، لفقدانهـا بصرهـا..

- هكذا إذن، لنكمل الآن جولتنا يا أصدقاء!

تستطيعون القول بأن ذلك المصوّر كان محدود التفكير، ليتعمق في معنى الأسى الحقيقي.. الذي يعيشه هذا الطفل، لكن ليس بعد الغد!

التفاعل الذي تلقاه الفيديو، كان كبيرًا للغاية، هو كان يظنُّ بأنه أبدع بالتصوير، أو حتى كانت فكرة الفيديو مبهجة لمشاركتها، تفاصيل الشارع، وبعض الحكايات..

لا يعرف تمامًا بأن التفاعل، كان تعاطفًا مع عبارة ذلك الصغير، التي لم يبدِ لها اهتمامًا..

لا شيء يثبت ذلك إلا حشود الناس عند الكورنيش، ليس له عنوانٌ محدد، لكن الكل يبحث عند أطراف الرصيف وزواياه عن كرتونة جرابات صوفية، هل يا ترى وجد الناس ذلك البائع الصغير.. أم أنه سئم من ضجيج الكورنيش، وغيّر مكان بيعه للجرابات، وذهب لمكان آخر؟!

النهاية...

نغقّ، لكن ليس في نهايته ضوء

الأعيـاد كثيـرة، ودائـرة الوحـدة تتسـع لـدى البعـض، هل تحبـون الأعيـاد؟ أم صفـوان تكرهها، لـمَ يـا تـرى؟!

"مسـكينةٌ جارتـكِ يـا خالتـي، قصتهـا مؤسـفة فعـلًا!" أجابـت بعـد تنهيـدة، وقـد كان حديثهـا قبـل قليـل عنهـا: "هـي كذلـك..".

ليتنـي لـم أخطـئ العنـوان، لـم أطـرق البـاب، ليتنـي لـم أجـئ إلـى هنـا، ألا يـا ليـت العالـم كان أرحـم، بقلبـي، وحـال أم صفـوان تلـك، إنهـا زيارتـي الأولـى عنـد خالتـي، تشـابهت الأبـواب الحديدية السـوداء، المزخرفة، واختلفـت القصـص التـي تخفيهـا، وكان علـيّ أن أسـمع

قصـةً لـم أكـن مسـتعدةً لسـماعها، طـرق خفيـف علـى البـاب، يناقـض الحمـاس داخلـي للقـاء خالتـي، فـي هـذا الوقـت الرائـع، وحضـوري المفاجـئ إلـى هنـا، كنـت أنتظـر كل وأي شـيء، غيـر هـذا الشـيء الـذي يشـبه، الهتـاف الملهـوف، تبللـك الدمـوع فيـه، استشـعرت الدمـوع والبـكاء، الشـوق وعـدم التصديـق لأمـور كنـت أجهـل أسـبابها!

"تفضـل تفضـل، أرجـوك ادخـل أنـا هنـا، لقـد انتظـرت كثيـرًا تأخرتـم!".

يبـدو أن هـذه السـيدة التـي وراء البـاب، تنتظـر أحـدًا مـن أقاربهـا المتأخريـن، لكـن أي انتظـار هـذا الـذي يرافقـه البـكاء والانهيـار، بهـذا الشـكل!؟

اعترانـي الفضـول، رغـم أنهـا أجهشـت بالبـكاء لمجـرد فتحـي البـاب إلّا أنـي دخلـتُ، ووقفـت علـى العتبـة، دموعهـا عاتبتنـي لأنـي لـم أكـن مـن انتظـرت قدومـه، وقفـتُ لحظـةً، توقـف بـي الزمـن، هـي المسـتقبل المخيـف، وأنـا الماضـي الصغيـر تفصلنـي عنهـا، عتبـة الحاضـر الجامـدة تلـك.

لم تتعرف بعد عن من أكون، ولا زالت تظن بأني قريبها الهاجر، وما أنا إلا غريبة اللقاء، والوجه الذي لم تستطع رؤيته، بسبب ستار العمى، الذي أسدِل، على عينيها!

سألت بعد صمتٍ ساد الموقف الغريب، وعادت عجلة الزمان تدور، كما كانت قبل ثوانٍ، تقول لي برجاء في صوتها: "صفوان؟".

- مَن صفوان هذا، لست صفوان يا سيدتي..

ضحكت كما الأطفال تعتقد بأني أحد آخر سيفاجئها بقدومه، "هل غسانٌ أنت؟" لست كذلك! "أمينة؟"..

أسماء كثيرة ذكرت، وصمتُّ أنا، كل هؤلاء هجروكِ، أي بؤس هذا، قالت في محاولاتها الأخيرة في التخمين :»ليلى ابنة عادل؟»

أجبت :»لست أي أحدٍ منهم، يا سيدتي أنا عابرة طريق".

بحشرجة تنذر بالبكاء :»أعابرة طريقٍ أنتِ؟".

- أجل.
- اعذريني يا ابنتي، تستطيعين المغادرة..

غادرت أنا، وقلبي ينتفض حزنًا على ما رأيت وما سمعت، يا إلهي ارحم هذه السيدة إنها تعيش أصعب درجات العجز فتولاها برحمتك!

عاشت أم صفوان وحدة آخر ورقة تعلقت في اللاشيء من شجرتها، قبل أن تقضي عليها نسائم الخريف الجافة، وَحدة العناكب بين شباكها، وحدة الموتى في المقابر، كانت هي المنتظِرة أعلى الدرجات أمام الباب تنتظر طارقًا مألوفًا، قريبًا.

كنتُ أتقصى أخبارها من خالتي التي جاورتها، لم يزر أي أحد بيتها، حتى في الأعياد، لا شيء طرق بابها سواي أنا والهموم، القسوة وبعض الجيران المتعاونين.

في آخر الأخبار عنها سمعت: في ذكرى ميلادها الخامس والسبعين، زارها أولادها واجتمع الجميع، عندها لم ينقطع صوت ضحكاتها الذي اخترق الجدران مع أقاربها في ذلك النهار، لكن دائمًا ما

تكـون الأحـلام سـريعة، وتنتهـي بـدون إدراكٍ منـا، وقضـت تلـك الليلـة تجهـش بالبـكاء حتـى طلـوع الفجـر بعـد انسـحاب مؤنسـيها، حـاول الجيـران الـكلام معهـا لكنهـا لـم تسـتجب، كان ذلـك مـن خلـف البـاب الموصـد، لكـن مـا إن لملـم الليـل متاعـه، أخـذ معـه أم صفـوان، وصـوت بكائهـا، ورحـل ولـم ينـوِ إرجاعهـا فـي المسـاء القـادم..

كان ميلادهـا الأخيـر، غـادر أبناؤهـا، وتركوهـا تعيـش وحـدةً بعـد المـوت وقبلـه، بيـن جـدران البيـت والقبر، لا فـرق بيـن تلـك الوحدتيـن، فهـي لـم تبصـر فـي البيـت أو القبـر معنـى الحيـاة، حملتهـا عجـلات كرسـيها المتحـرك فـي بيتهـا مـن مـكان لآخـر، وأيـدٍ أدت واجبهـا الإنسـاني نحـو جسـم ميـت، فنقلتهـا مـن البيـت إلـى هنـاك، ولا فـرق سـوى راحـة أجفانهـا منطفئـة النـور مـن البـكاء، وحنجرتهـا مـن الصـراخ.. غادرتهـا الجـدران، العتبـة والبـاب، وبقيـت أنـا أدعـو لهـا حتـى يؤنسـها دعائـي فـي قبرهـا، لأخفـف عنهـا وحدتهـا الثانيـة..

سيرة ذاتية مختصرة

حلا أحمد الزيناتي، كاتبة فلسطينية واعدة من غزة، ولدت في 22 ديسمبر 2008. أبدعت منذ صغرها في مجال الأدب، حيث حققت العديد من الإنجازات اللافتة، من بينها الفوز بالمركز الأول في مسابقة «بلدتي» على مستوى فلسطين لدى دائرة اللاجئين واللجان الشعبية عام 2022، وفازت قصتها (فجر على ياقة ميلاد) بالمركز الأول في مسابقة (قلم حر) التي عقدتها دار طباق للنشر والتوزيع برام الله عام 2023، وكذلك الفوز بالمركز الأول في مسابقة المقالة على مستوى مدارس الغوث للاجئين عام 2023 في مقالة بعنوان (ريحانة قلبي والحرب).

كتبت حلا روايتها الأولى بعنوان (فراشةٌ على الجليد)، كما كتبت ونشرت العديد من المقالات والنصوص النثرية.

برزت موهبتها في التعبير عن حرب غزة والمأساة التي تعيشها من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، حيث نشرت نصوصها إضافة للرسم وتصميم الفيديوهات وتوثيق اليوميات بالكلمة والفن.

بينما ينشغل العالم بأهوال صور القتل الجماعي والدّمار القادمة من غزة المكلومة، ثمة صور أخرى لا تصل إلى عيوننا، تتوالد عبر أدوات التعبير الأدبية والفنيّة المختلفة في مزجٍ ألمعي ما بين الواقع والخيال، حتى أننا لم نَعُد قادرين على التمييز بين ما نراه من أحداث وما هو متخيّل، من يسبق الآخر؟ لعلّنا أمام إبادة تتجاوز حدود الوضوح!

يأتي مشروع سلسلة "إصدارات من غزة" في وقت نحتاج فيه إلى تسليط الضوء على الأبعاد الإنسانية الصارخة لهذه الحرب التي يعيشها شعبنا الفلسطيني، فهذه الحرب ليست مجرد أرقام أو تقارير إخبارية، بل هي مجموعة من القصص الحيّة، والتجارب اليومية، والأحلام المكسورة التي تشكل حياة الأفراد والعائلات في غزة. في كل يوم، يتعرض الفلسطينيون لأهوال تفوق التصور، لكنهم يظلون متمسكين بالأمل والإبداع في مواجهة الصعوبات.

من خلال هذه الإصدارات، سنستكشف تجارب إنسانية فريدة مغلفة بالفن والأدب كمصادر للمقاومة، وسنسلط الضوء على تأثير الإبادة على الهوية الإنسانية الفلسطينية. سنتناول قصص الأفراد الذين يتجلى صمودهم في مواجهة التحديات، وكيف تعكس أعمالهم الفنية والأدبية معاناتهم وآمالهم.

أدعوكم جميعًا للانضمام إلينا في هذه الرحلة، لنعمل معًا على إيصال صوت غزة إلى العالم، ولنُظهر أن الأمل والصمود يمكن أن يكونا سلاحنا الأقوى في مواجهة الظلم.

وزير الثقافة

أ. عماد عبدالله حمدان

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان